كونية القيم وقدسية الفعل الحضاري في الإسلام

الدراجي زروخي

الطبعة الأولى جويلية 2022

منشورات مخبر الدراسات الأنثربولوجية والمشكلات الاجتماعية

كونية القيم وقدسية الفعل الحضاري في الإسلام

الدراجي زروخي

هـذا الكتـاب

يتناول هذا الكتاب الرؤية العالمية والكونية للقيم من منظور الدين الإسلامي، هذا الدين العظيم الذي قدس كل الأفعال الحضارية كما قدس الإنسانية وفق نمط متناسق و رؤية واضحة للأخلاق لا يكتنفها غموض إلا من كان في قلبه زيغ أو مرض، وحاولت في هذا الكتاب أن أغوص في بعض النصوص القرآنية وبعض الأحاديث التي تجاهلها المسلمون أو فزموها بتركيزهم على الجانب الفقهي فقط واهمالهم للجانب القيمي والحضاري، ويجب أن ندرك بأن القرآن الكريم يرضي فضول الفقيه كما يرضي فضول العالم التجريبي كما يرضي فضول المفكر والفلكي والروائي والاديب باختصار يرضي فضول كل من يشتغل به، ويسلط الكتاب الضوء على نقطة هامة هي أن قدسية الفعل الحضاري في الإسلام مستمدة من كونية القيم التي ينادي بها، فلا يمكن أن نؤسس حضارة وفق قيم خاصة متعصبة غير منفتحة على الآخر و غير مؤثرة فيه، و لا يمكن أن تكون القيم كونية ما لم نقدس الأفعال الحضارية والتي من جملتها التفكير والحرية والعدالة واحتواء الاخر، والقيم الكونية في الإسلام تراعي أخلاق التواصل و أخلاق الاختلاف و اخلاق الاعتراف و أخلاق المسؤولية و أخلاق القوة.

ويتعرض الكتاب لكيفية صناعة الإسلام للحضارة لتكون هذه القوة الحضارية أساسا للعفو، وهذا ما جاء بعضه واضحا في النص القرآني أو السنة النبوية الشريفة وبعضه الآخر جاء مستترا يظهر من خلال حركة التأويل العقلي، وما علينا فعله كمسلمين هو أن نبعث الإسلام الحي من خلال تجديد قراءة النصوص القرآنية قراءة حضارية كتتمة للقراءة الفقهية، وعلينا أن نبعث الحياة في العقيدة الإسلامية من خلال الصناعة الحضارية الإسلامية. ومن هنا نتساءل كيف يتحول التوحيد من مجرد عقيدة الى فعل حضاري واجتماعي وثقافي؟ وكيف يتأسس العقل الحضاري كتكملة للعقل الفقهي حتى يكون الإسلام أساسا للحضارة؟ وعلينا اليوم أن ندرك جيدا بأننا ملزمون بإعادة بناء الفهم وإعادة النظر في المقاصد وتفعيل العقيدة لتأسيس الإسلام الحي.

ISBN: 978-9931-687-28-3

جامعة محمد بوضياف -المسيلة

منشورات مخبر الدراسات الأنثربولوجية والمشكلات الاجتماعية

1443هـ / 2022م

كونية القيم وقدسية الفعل الحضاري في الإسلام

تأليف

أ.د. الدراجي زروخي

رقم الإيداع القانوني : 978-9931-687-28-3

الطبعة الأولى جويلية 2022

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول عزوجل في كتابه الكريم

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾

سورة النساء الآية 36

مقدمة

مقدمة

تراجع مستوى المسلمين الحضاري اليوم تراجعا ملحوظا وهذا التراجع ليس بالتراجع التلقائي الحاصل بمحض الصدفة بل انهيار مؤسس له أسبابه المعلومة، وهذا بدوره أدى الى تغير نظرة العالم للقيم الإسلامية، واعتبارها رؤية قومية ضيقة وغابت مع هذا الرؤية العالمية والكونية للقيم من المنظور الديني الإسلامي، رغم أن الإسلام في عمق نصوصه قدس كل الأفعال الحضارية، ونقصد بالتقديس هنا أنها أخذت مكانة عالية ومهمة في الإسلام، كما قدس الدين الإسلامي الإنسانية، وفق نمط متناسق ورؤية واضحة للأخلاق والقيم، وهذه الرؤية لا يشوبها غموض إلا لمن كان في قلبه زيغ.

ومن هنا حاولت في هذا الكتاب أن أغوص في بعض النصوص القرآنية وبعض الأحاديث التي تجاهلها المسلمون أو قزموها بتركيزهم على الجانب الفقهي فقط واهمالهم للجانب القيمي والحضاري، ويجب أن ندرك أن القرآن الكريم يرضي فضول الفقيه، كما يرضي فضول العالم التجريبي ويرضي فضول المفكر والفلكي والروائي والاديب، وباختصار يرضي فضول كل من يشتغل به، وهو صالح لكل زمان ومكان ويحتوي

زخما فكريا لا تحيط به كل العقول مجتمعة، لذا حاولت تسليط الضوء على نقطة هامة تتمثل في أن قدسية الفعل الحضاري في الإسلام مستمدة من كونية القيم التي ينادي بها، فلا يمكن أن نؤسس حضارة وفق قيم خاصة ومتعصبة وقومية، ولا يمكن أن تكون القيم كونية ما لم تقدس الأفعال الحضارية، والتي من جملتها التفكير والحرية والعدالة واحتواء الآخر، وبعث أخلاق التواصل وأخلاق الاختلاف وأخلاق الألفة، وأخلاق المسؤولية والتفاعل مع الآخرين، وحاولت أن أبين كيفية صناعة الإسلام لقوة الحضارة وللحضارة القوية، لتكون هذه القوة الحضارية أساسا للعفو، وهذا ما جاء بعضه واضحا في النص القرآني أو السنة النبوية الشريفة، وبعضه الآخر جاء مستترا، لا يظهر إلا من خلال حركة التأويل العقلي.

وما علينا حتى نحيي ونبعث الإسلام سوى التعمق في هذه النصوص القرآنية فقط، وإعادة فهمها فهما حضارية كتتمة للفهم الفقهي، وعلينا أن نعمل على تفعيل العقيدة الإسلامية وتحويلها إلى أفعال وأخلاق وقيم وممارسات حضارية، وهذا ما يدفعنا الى التساؤل: كيف يتحول التوحيد من مجرد عقيدة الى فعل حضاري واجتماعي وثقافي؟

هذا ما حاولت أن أجيب عنه في هذا الكتاب ويجب أن نعي جيدا أن واجبنا اليوم كمسلمين يحتم علينا إعادة بناء الفهم وإعادة النظر في المقاصد، وتفعيل العقيدة لتشكيل الإسلام الحي الذي يكون أرضية صلبة لنقل القيم الإسلامية إلى العالمية والكونية وهو المراد لها من رب العزة. وأنبه القارئ الكريم أن هذا الكتاب هو تكملة لمشروع الفهم الحقيقي للإسلام الذي تناولته في كتاب خرافة الإسلاموفوبيا.

وأرجو أن يحمل الكتاب أفكارا إيجابية تفيد القارئ، وتكون في مستوى الفهم الصريح والصحيح الذي يرفع من شأن هذا الدين في النفوس.

الدراجي زروخي

جامعة محمد بوضياف-المسيلة

أولا/ التفكير وأبعاد التوحيد في الإسلام

قال الله تعالى

۞ وَسَخَّرَلَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ ومَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لَّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ۞

سورة الجاثية الآية 30

أولا/ التفكير و أبعاد التوحيد في الإسلام

الحديث عن الحضارة والابداع الحضاري، وعن القيم والأخلاق لا يتم إلا بتثمين قيمة التفكير، ذلك أن التفكير هو القيمة الحضارية الأولى، وهو الميزة الجوهرية التي تفصل الإنسان عن غيره من الكائنات والدين الإسلامي انفرد بتمجيده وتقديسه للتفكير واستخدام العقل وربط الإسلام التوحيد بالتفكير واستخدام العقل، فجعل من العقل شرطا من شروط اعتناق الإسلام، واستدعى الانسان لاستخدام عقله لاكتشاف حقيقة الله، وتفرده بالوحدانية، وهذا ما سنفصل فيه من خلال العناصر التالية:

1/ التفكير طريقنا إلى التوحيد

التوحيد هو الإيمان بإله واحد لا شريك له، وهو معرفة الله تعالى بالربوبية، والاقرار له بالوحدانية، ونفي الأنداد عنه جملة ويقتضي التوحيد أن لله كمالا لا يؤت لغيره [1].

وعلم التوحيد هو أشرف العلوم على الإطلاق، لأنه يتعلق بمعرفة الله عز وجل، وما يجب له من الصفات، وما يستحيل عليه وما يجوز في حقه سبحانه وتعالى، وما يتبع ذلك من أمور النبوة والآخرة، والتوحيد هو أصل في الدين الإسلامي ، قال الله تعالى ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ** ﴾ سورة محمد الآية 19، وفي هذه الآية

تقديم التوحيد عن الاستغفار، لأن التوحيد هو الأصل، وتشير الآية إلى ضرورة العلم بهذا لا الاعتناق عن جهل، ولا يقبل استعفار أو طاعة من غير توحيد يقول عزوجل في كتابه الكريم ﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا** ﴾ سورة النساء الآية 124، وقال تعالى ﴿**وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا** ﴾ سورة الفتح الآية 13، فلا يصح الإيمان بالله إن لم يقترن به الإيمان برسوله محمد صلى الله عليه وسلم مع التصديق بكل ما جاء به وأخبر به[2].

وكلمة التوحيد هي أصل الدين وأساسه، وهي دعوة جميع الأنبياء والرسل، وقد بينت النصوص من الكتاب والسنة بيان معنى توحيد العبادة فقال عز وجل ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ سورة الصافات الآية35، فلم يقروا بهذه الكلمة، وذلك لأنهم يعلمون معناها، إذ لو كان مجرد قول لا يلزم منه التخلص من جميع المعبودات و الإقرار بالعبودية لله وحده لقالوها، ووصف المولى عزوجل هذا الصنف من الناس بقوله ﴿**أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ** ﴾ سورة ص الآية5، وبين المولى عز وجل أن ما يعبد هؤلاء المشركون من دون الله سبحانه وتعالى هو الباطل الذي يبلى ويفنى، ولا يفيد ولا يغني، وأن عبادته سبحانه وتعالى وحده هي الحق.

ورغم أن التوحيد فكرة كلية لا تتجزأ إلا أن بعض العلماء قسم التوحيد-تقسيماً بسيطاً لسهولة الفهم والإحاطة-إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي:

-توحيد الربوبية

ويقصد بتوحيد الربوبية إفراد الله بأفعاله، وبعبارة أخرى يجب أن يعتقد المسلم بتفرد الله بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، والملك والتدبير، وسائر ما يختص به من أفعال، وقد كان هذا النوع من التوحيد واضحاً بيناً حتى لدى قريش قبل الإسلام [3].

-توحيد الألوهية

معنى توحيد الألوهية هو الاعتقاد الجازم بأن الله هو الإله الحق ولا إله غيره وإفراده بالعبادة. والإله هو المألوه أي المعبود وتعرف العبادة لغةً بأنها الانقياد والتذلل والخضوع. فلا يتحقق توحيد الألوهية إلا بإخلاص المسلم العبادة لربه وحده في باطنها وظاهرها، بحيث لا يكون شيء منها لغيره، وهذا التوحيد هو الفارق بين الموحدين والمشركين، وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة، فمن لم يأت به كان من المشركين، وبهذا فإن تطبيق توحيد الألوهية يوجب التوجه إلى الله وحده بجميع أنواع العبادة والاعمال الصالحة[4].

-توحيد الأسماء والصفات

وهو الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسماء الحسنى والصفات ،كما يعني توحيد الأسماء والصفات اعتقاد انفراد الله بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله محمد من الأسماء والصفات ومعانيها وأحكامها الواردة بالكتاب والسنة[5]. قال الله تعالى ﴿**رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾ سورة مريم الآية65 ، وبهذا فرق الله تعالى بين ربوبيته، وعبادته، واسمه.

والتوحيد يعتبر فعل حضاري مقدس، لأن البحث عن خالق الوجود واكتشاف عظمته أمر قدسته الفلسفات والحضارات والتوحيد يعطي قيمة لكل أفعال الإنسان، وفي غياب الإيمان والتوحيد يصبح وجود الإنسان عبثي لا قيمة له، ولا يمكن الحديث عن التوحيد والإيمان إلا بتقديس ملكة التفكير، وهذا ما أقره الإسلام يقول عز وجل ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ سورة الأعراف الآية 176

ويقول أيضا﴿ **وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾سورة الرعد الآية3، فهذه الآيات تدعو الإنسان لإعمال العقل والتفكر والتأمل لمعرفة سنن الله في كونه واحكام الخلق. ومرة أخرى يضرب لنا المولى عزوجل سورا سماها بمخلوقاته وكلف عباده بالتأمل في عجائب صنعه فقال عز من قائل﴿ **يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾سورة النحل الآية 11، ويقول أيضا ﴿ **ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ سورة النحل الآية69.

ثم يدعونا المولى عزوجل إلى التأمل في أنفسنا فقال ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ سورة الروم الآية 21، وقال أيضا﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ سورة الزمر الآية 42، ويقول المولى تبارك وتعالى﴿ **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ** ﴾ سورة الروم الآية 8.

وبعد التأمل في الأنفس يسخر لنا الله الكون لنمارس الحياة، فكان الإنسان أكثر قداسة من أي مقدس في الكون يقول عزوجل﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾سورة الجاثية الآية 13، وقال أيضا﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾سورة الحشر الآية 21.

والبعد الأهم في التفكير والتوحيد يكمن في خشية الله يقول تبارك وتعالى﴿ **يقول الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾سورة آل عمران الآية 191

إن الآيات التي تتحدث عن وجوب التفكير لبلوغ حقيقة التوحيد كثيرة في القرآن الكريم ذكرت بعضا منها، ويمكن القول بأن التفكير سلوك حضاري محوري مقدس في النص القرآني، لأن التفكير الصحيح يقود الى التوحيد، والتوحيد لا يقوم في الذات إلا بنسق فكري صحيح، أما التفكير المضطرب الذي يقود إلى الجحود ونكران التوحيد رغم قيام الحجة في العقل على وحدانية الله فذاك فيه إهانة للعقل، وتهاون في حق الله يقول عزوجل﴿ **إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ** ﴾سورة المدثر الآيتين 18،19.

وقداسة الإنسان في الإسلام مستمدة من ممارسته للتفكير المفضي إلى الإيمان وعقيدة التوحيد، وإعمار الأرض، وهو عين الفعل الحضاري، وأما ما عداه فقد يفضي إلى الهلاك.

إن قيمة العقل تكمن في بلوغ الإنسان الحقيقة الكبرى التي قال عنها المولى عزوجل ﴿ **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النّاس وَمَآ أَنزَلَ اللّه مِنَ السَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كلّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ سورة البقرة الآيتين 163،164. والحقيقة الكبرى هي إدراك حقيقة الخالق من خلال إدراك حقيقة الخلق، فكلما كان فعل التعقل تاما كانت معرفتنا بالله أتم.

2/ التوحيد وقدسية الآخر

على الرغم من قدم العلاقة بين الأنا والآخر وتنوع صورها بين الحب والعطف والاحترام والصداقة والقرابة والإيثار والصراع والتنافس والعداوة، وعلى الرغم من كل الدعوات الكبرى إلى أداء واجب الضيافة ومساعدة الجيران والفقراء وحب الخير للآخرين واحترامهم إلا أن الإسلام كان سباقا ومقدسا لعلاقة الانسان بالآخر من خلال الربط بين التوحيد وهذه العلاقة، أي علاقة الإنسان

بالإنسان، ولا توجد عبادة في الإسلام تفتقد إلى أبعادها الخلقية الواقعية يقول عزوجل﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا** ﴾سورة النساء الآية 36.

يتضح جليا أن توحيد الله وافراده بالعبادة مرتبط ارتباطا ضروريا بالإحسان إلى الاخرين بغض النظر عن الانتماء، فالطاعة تجب للوالدين حتى وإن كانا على غير الإسلام إلا في حالة طلبهما للمعصية، ويأمرنا المولى عزوجل إن كنا نوحده ولا نشرك به شيئا أن نحس للجار أيا كانت عقيدته، وأن نهتم بالقريب واليتيم والمسكين وابن السبيل وإلا فإن التوحيد والإيمان يفقد معناه، وحرم الله الجنة على من لا يتضامن ويؤذي جاره، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **"ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به"** رواه الطبراني في الكبير، وعن أَبي هريرة ـأن النَّبيَّ ﷺ قَالَ" **واللَّهِ لا يُؤْمِنُ، واللَّهِ لا يُؤْمِنُ، واللَّهِ لا يُؤْمِنُ، قِيلَ: مَنْ يا رسولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذي لا يأْمنُ جارُهُ بَوَائِقَهُ"** مُتَّفَقٌ عَلَيهِ، بمعنى أن الجنة محرمة على كل جار يؤذي جاره، ولا يقوم إيمان أو توحيد مع هذا الخلق الذميم.

إن عملية تكوين الذات أمر يتوقف على ما يسميه بالتبادلات التفاعلية بين الناس، فمن خلال العلاقات التذاوتية التي تقام بين الفرد والآخرين، وما تتضمنه هذه العلاقات من أشكال التعامل الذي يكتسب الفرد وعيه بذاته، وبكيفية تحقيقها من خلاله، وهذا يفترض دائما وجود الآخر، ومن ثم يمكننا القول انطلاقا من هذا المنظور بأنه لا يمكن تحقيق وجودنا إلا من خلال الاعتراف بالآخر، ومن خلال علاقتنا وتفاعلنا معه، فنحن نكتشف قيمتنا ووجودنا وقوتنا وضعفنا فقط أثناء التفاعل مع الآخر يقول عزوجل﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ سورة الحجرات الآية13.

ويقوم خطاب تقديس الآخر في الإسلام على مجموعة من الأسس يمكن ايجازها في العناصر التالية:

أ/المحبة والألفة

المحبة علاقة تفاعلية مؤسسة على نموذج خاص للاعتراف المتبادل، وهذا يعني أن هناك علاقة متداخلة بين العلاقات العاطفية وقدرة الفرد على الشعور بقيمة أو مكانته التي تجعله يثق في نفسه [5]. وعزز الإسلام علاقة الحب بين الناس، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال **" لا يؤمن**

أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " رواه البخاري، وأي تقديس أكبر من أن تكون المحبة بيننا كمحبتنا لأنفسنا، وتأسيس الحضارة يمر من هذا التماسك بين الذات والآخر.

كما يدعو الإسلام إلى التفاعل الإيجابي بين الناس، فعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **"المؤمن يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير الناس أنفعهم للناس"** رواه الطبراني في الأوسط، فالألفة هي التي تؤسس للتواصل الحضاري الذي هو عملية أخذ وعطاء للمعاني بين شخصين، ولا خير فيمن لا يأْلَف ولا يُؤْلَف لضعف إيمانه وعُسْر أخلاقه، وسوء طباعه. والأُلْفَة سببٌ للاعتصام بالله وبحبله، وبه يحصل الإجماع بين المسلمين وبضِده تحصل النُّفْرة بينهم، وإنما تحصل الألفة بتوفيقٍ إلهي.

وما يخلق الألفة بين الناس هو حسن الأخلاق، وسهولة الطباع والرفق واللين، فالنفس المحبة دائما تكون مستعدة للدخول في علاقة مع الآخر والتخاطب معه مهما كانت نتائج هذا الخطاب.

ب/الحق

الحق اسم من أسماء الله الحسنى وجاء الحق كعلاقة بين الناس ليضبط المحبة والألفة بينهم، وحتى لا تكون عبثية في العلاقات وينتشر التهاون بين الناس قال عزوجل ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ**

بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَ إِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ سورة النحل الآية 90، فالحق والعدل ينظم علاقة الحب والأخوة بيننا حتى يكون التواصل والتفاعل ايجابيا.

ويمثل الحق الشكل الثاني من أشكال التآلف المتبادل بين الذوات وهذا على المستوى القانوني، فالتآلف القانوني هو الذي يضمن حرية الأفراد واستقلالهم الذاتي، وهذا يحيلنا في الواقع الأمر إلى ما يسمى بالحقوق الفردية، إذ أن هذا مبرر وجود هذه الحقوق نفسها التي تحقق هذا الغرض الأساسي، غير أن القانون الإسلامي يسمح بذلك في إطار الاعتراف المتبادل الذي يفترض المسؤولية الأخلاقية على كل أعضاء المجتمع [6].

والحق المقصود هنا هو الحق المدني والاجتماعي والسياسي الذي تمنحه المؤسسات، فالمحبة والألفة في الإسلام قائمة على أساس مسؤولية مدنية ومسؤولية أخلاقية، وكأن الألفة قرار أخلاقي متبوع بقرار سياسي وهذا ما يظهر في قوله عزوجل **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** سورة البقرة الآية 179 فإن قامت المسؤولية الأخلاقية كنا في غنى عن القصاص، الذي يحل محل المسؤولية المدنية السياسية، وإن لم تقم هذه

المسؤولية الأخلاقية كان القصاص بديلا تنظيميا للمجتمع حفظا للأرواح والأموال والأعراض.

ج/ التعاون

التعاون الاجتماعي يعزز الألفة بين الناس في نظر الدين الإسلامي وهو الذي يسمح للأفراد بتحقيق ذواتهم من خلال علاقات التفاعل المتبادلة، غير أن التعاون قد أصبح في المجتمعات الحديثة يتوقف على وجود علاقات التقدير المتماثل بين الذوات التي حققت استقلالا ذاتيا.

والملاحظ أن شعور المرء بالتقدير يتوقف على الآخرين، أو تقدير الغير، وعندما يحصل على هذا التقدير يستطيع تحسين صورته إلى ذاته بصورة ايجابية، لأنه يتأثر بصورة كبيرة بمواقف الآخرين، لكن الأفراد يحصلون على التقدير الاجتماعي والأخلاقي بقدر ما يقدمونه وما ينجزونه من أعمال لها قيمة في نظر الآخرين أو بالأدوار التي يقومون بها في المجتمع لكن الإسلام جعل التعاون منزها عن أية غاية أو مصلحة دنيوية ، فعن أَبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قَالَ" **مَنْ نَفَّس عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبةً منْ كُرب الدُّنْيا نفَّس اللَّه عنْه كُرْبةً منْ كُرَب يومِ الْقِيامَةِ، ومَنْ يسَّرَ عَلَى مُعْسرٍ يسَّرَ اللَّه عليْهِ في الدُّنْيَا والآخِرةِ، ومَنْ سَتَر مُسْلِمًا سَترهُ اللَّه فِي الدُّنْيا**

وَالآخِرَةِ، واللَّه فِي عَوْنِ العبْدِ مَا كانَ العبْدُ في عَوْن أَخيهِ، ومَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يلْتَمسُ فيهِ عِلْمًا سهَّل اللَّه لهُ به طَرِيقًا إِلَى الجنَّة. وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بيْتٍ منْ بُيُوتِ اللَّه تعالَى، يتْلُون كِتَابَ اللَّه، ويَتَدارسُونهُ بيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينةُ، وغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمةُ، وحفَّتْهُمُ الملائكَةُ، وذكَرهُمُ اللَّه فيمَنْ عِندَهُ. ومَنْ بَطَّأَ بِهِ عَملُهُ لَمْ يُسرعْ به نَسَبُهُ " رواه مسلم، وفي هذا الحديث تثمين للتعاون بين الناس، والتعاطف بينهم وتقديم يد العون لهم، ولا شك أن التعاون والتضامن صفة حضارية وفعل من أفعال الحضارة ومطلب إنساني سبق إليه الإسلام وشجع عليه، يقول عزوجل ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾ سورة المائدةالآية2 فالتعاون في الإسلام هو أن يعين المسلمون بعضهم بعضا قولا وفعلا، بل إن مد يد العون لا تتوقف على المسلم اتجاه المسلم بل تتعدى الى غيرهم من أهل لملل الأخرى يقول عزوجل﴿ **لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ سورة الممتحنة الآية8

ويشترط الإسلام في التعاون مع الآخرين اخلاص النية لله فنحن نساعد الغير ابتغاء مرضات الله عزوجل، إنها التضحية من أجل الآخرين بالمبدأ الموجه للفعل، فهي سلوك قصدي وإرادي ينجز من

أجل منفعة شخص آخر بعيدا عن منفعتنا الخاصة وعن توجهنا الأيديولوجي، يقول عزوجل﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا** ﴾سورة الانسان الآية 9.

وفي هذا السلوك الحضاري الذي يحمل التنزيه في تعاملنا مع الآخر تتجلى القدرة على تبني أخلاق الاعتراف بغيرية الآخر واحترامه وليس في محاولة اختزاله في هوية الشبيه.

ومن هنا يمكننا القول بأن هذه الأشكال الثلاثة فيها تثمين لعلاقة المسلم بغيره، فالمحبة والألفة تحقق الثقة بالنفس، والطمأنينة والحق يحقق احترام الذات، وأخيرا التعاون الذي هو أساس تقدير الذات.

والملاحظ أن الغاية من أخلاق الغيرية والإحسان إلى الآخر في الإسلام هي تحقيق وجود الذات لا تحقيق وجود الآخر، بمعنى أن الاعتراف بالآخر والتعاون معه هو مرحلة ضرورية لتحقيق الذات المسلمة الموحدة، ومثل هذه القيم كفيلة بإنهاء الصراع الاجتماعي القائم بين الذوات، وتحويله إلى تنافس وتعاون ومحبة وتضامن، وهو ما يسعى إليه الإسلام.

ولم يقدس الإسلام علاقة الإنسان بربه، وعلاقة الانسان بالإنسان فقط، بل قدس الإسلام علاقة الإنسان بالحيوان والنبات والبيئة بصفة عامة، فقد نهى رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم

عن العبث بالبيئة وعن قتل الحيوان دون وجه مصلحة أو منفعة وهذا ما يظهر في قوله صلى الله عليه وسلم" **ما من إنسان قتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها إلا سأله الله عزوجل عنها. قيل: يا رسول الله، وما حقها؟ قال: يذبحها فيأكلها، ولا يقطع رأسها يرمي بها**" رواه النسائي، والوعيد الوارد في هذا الحديث يشمل قاتل الحيوان الذي يؤكل لحمه، والذي لا يؤكل لحمه، ومن فعل ذلك فعليه أن يتوب إلى الله ويستغفره، ويتقرب إليه بما استطاع من أعمال الخير والنوافل.

وعَنْ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم مر بسعد وهو يتوضأ فقال " **مَا هَذَا السَّرَفُ يَا سَعْدُ؟ قَالَ: أَفِي الْوُضُوءِ سَرَفٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ** "رواه الإمام أحمد وابن ماجة.

هذه الأحاديث وغيرها كثير تدل على أهمية فلسفة القيم في الإسلام وشموليتها للبيئة، وكل هذا مرتبط بعقيدة التوحيد، لأن التوحيد ينظم علاقة الانسان بربه وعلاقة الانسان بغيره.

3 / التوحيد وبعث إرادة الانسان[7]

شاع بين المسلمين اليوم اعتقاد بأن التوحيد يقتضي أن يؤمن الإنسان بأن كل شيء يسير وفق قضاء الله وقدره، وإذا أراد الله للشيء أن يكون كان والعكس صحيح، وأن الإنسان يسير تحت

مشيئة الله، بل ذهب بعضهم إلى القول بأن التخلف الذي يصيب المجتمعات الإسلامية اليوم هو أيضا قضاء وقدر من الله، لذا على المسلم اليوم أن يرضى بهذا القدر المحتوم.

إن هذا النوع من التفكير فيه مبلغ الخطورة على التوحيد والنهضة وإعادة إحياء الحضارة.

ويذهب البعض في شلهم للإرادة الإنسانية إلى الاستشهاد ببعض النصوص القرآنية المعزولة عن سياقها، لذا يقتضي منا التوحيد أن نفهم علاقتنا مع الله، وندرك حدود ارادتنا في علاقتها مع الإرادة الإلهية، ويجب أن ندرك حدود قوتنا وهمتنا في صنع مصيرنا وإلا انتقلنا من التوحيد المفضي إلى التوكل إلى الشرك المفضي إلى التواكل، وهذا ما بينه ابن تيمية في الكثير من المواضع مؤكدا على أن بعض العلماء لم يميزوا بين التوكل والتواكل، ولم يدركوا أن الله بريء من أفعال البشر، وانطلق ابن تيمية لإثبات حرية الإنسان وقدرته على استخدام إرادته في صنع أفعاله من قوله عز وجل ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات يَهْدِيهِمْ رَبّهمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ الْأَنْهَارِ فِي جَنَّات النَّعِيم** ﴾ . إن في هذه الآية دلالة قاطعة أن الإنسان هو الذي يعمل والله يجازي وفقاً لعمل الإنسان، وهذا ما يظهر في قوله عز وجل ﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ**

فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ وهذا ما يوضحه الحديث الشريف " **الراحمون يرحمهم الرحمان "**

هذه الآيات والأحاديث تدل دلالة قاطعة على أن الإرادة الإنسانية هي التي تفعل وتقرر، وهي التي تصنع النجاح والفشل لكن الإنسان يبقى فقيراً إلى الله فالتوفيق دائماً منه عز وجل ، لكن الله لا يصنع أفعال العباد، لذا فإن الرجل في الدنيا يجزى على ما فعله من خير الهدى، وهذا ما يفتح عليه هدى آخر، ولهذا قيل من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم، فتوفيق الله يكون نتيجة لأفعال الإنسان، كما أن الجنة والنار هي نتيجة أفعال الإنسان والفشل في الحروب والدراسة هي نتيجة أفعال الإنسان أيضا، والله يخذل الإنسان انطلاقاً من أفعاله.

ويفصل ابن تيمية بين التوكل والتواكل، ويحدد دائرة الإرادة الإنسانية والإرادة الإلهية، وينطلق في ذلك من الحديث القدسي " **يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ**"، بيّن ابن تيمية أن هذا الحديث يدل على وجوب التوكل على الله في الرزق المتضمن جلب المنفعة كالطعام ودفع المضرة، وأنه لا يقضي غير الله على الإطعام والكسوة قدرة مطلقة وإنما القدرة التي تحصل لبعض العباد تكون على بعض أسباب ذلك، ولهذا قال عز وجل ﴿

وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ وقال أيضاً **﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ﴾** فالمأمور به هو المقدور للعبادة.

إذن كل ما أمرنا به الله نحن قادرون عليه، أمرنا الله بتغيير المنكر وفعل الخير ومجاهدة النفس وصناعة القوة باختلاف ميادينها وأمرنا بإعلاء راية الله، وأمرنا بالعدل والإحسان وأمرنا بتحرير أرضنا وصيانة عرضنا من الأعداء هذا كله في إرادتنا وبمقدورنا.

يظهر جليا أن الإسلام يرفع من شأن إرادة الإنسان، وهذا ما يظهر في قوله عز وجل**﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾**. وقال**﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾** . ومن هنا يعرف أن السبب المأمور به لا ينافي وجوب التوكل على الله، والقول بإرادة الإنسان لا يتعارض مع القضاء، بل إن الحاجة إلى الله واجبة والسعي والعمل بأخذ السبب فيه طاعة لله وتوحيد له.

ومن ظن الاستغناء بالسبب عن التوكل فقد ترك ما أوجب الله عليه من توكل، ولهذا يخذل أمثال هؤلاء إذا اعتمدوا على الأسباب وحدها، وهذا ما يظهر في قوله عز وجل**﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي**

بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. هذا وأن من أخذ يدخل في التوكل تاركاً لما أمر الله به من أسباب فهو أيضا جاهل ظالم عاص لله وبعيد عن التوحيد، ويترك ما كلفه الله به، فإن فعل المأمور به عبادة لله، وقد قال تعالى﴿ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾، فليس من فعل شيئاً أمر به وترك ما أمر به من توكل بأعظم ذنباً ممن فعل توكلاً أمر به، وترك فعل ما أمر به من السبب، إذن كلاهما مخل ببعض ما وجب عليه، وفقهه للتوحيد يشوبه نقص وغلط، وهما مع اشتراكهما في جنس الذنب فقد يكون هذا ألوم وقد يكون الآخر مع أن التوكل في الحقيقة من جملة الأسباب.

وقبل أن يلجأ الإنسان إلى قدرة الله عليه أن يأخذ بكل الأسباب وينفق جل طاقته. فإذا نفذت الطاقة وأخذ بكل الأسباب لجأ إلى قدرة الله، فالرسول عليه الصلاة والسلام يوم خرج مهاجراً أخذ بكل أسباب النجاة المعروفة، ويوم حبس في غار حراء ونفذت طاقته لجأ إلى قدرة الله التي ليس فوقها قدرة.

ونحن اليوم مطالبون كملتزمين بعقيدة التوحيد أن نؤسس ونرسم خطة ننهض ونبني بها حضارة تدل على عقيدة التوحيد التي ندين بها، ونفعل بإرادة حرة راجين من المولى عز وجل التوفيق وآنذاك لن يخيبنا الله.

والملاحظ اليوم أن الآخذين بالأسباب لم يفرقوا بين ما هو أخلاقي وبين ما هو غير أخلاقي، فجعلوا الغش أحد أسباب النجاح وجعلوا الرشوة أحد وسائل الفلاح، والكذب وسيلة تبررها غايتنا واختلط بالأذهان مفهوم التعاون والتهاون، والربح والغش، والفتنة والحق، وغاب الدين عن الحياة، وشلت الإرادة وحكمنا بغيرنا، بعد أن كنا نحكم غيرنا، وفي كل هذا تشويه للتوحيد الذي هو عهد التزمنا به مع الله.

وروى أبو داوود في سننه أن النبي ﷺ قضى بين رجلين فقال المقضي عليه حسبي الله ونعم الوكيل فقال ﷺ إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس فإن غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل ، وفي صحيح المسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال" **المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير أحرص على ما ينفعك و استعن بالله و لا تعجز، فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان".**

إن المؤمن مطالب بالعمل الجاد والحرص على النجاح وفق إرادة قوية قبل أن يتحسر على ما كان منه، ولقد أصبح قضاء الله وقدره حجة الكثير من الناس ليس فقط لتبرير فشله، ولكن حتى لتبرير معصيته وخروجه عن طاعة الله، ولقد فصل ابن تيمية هذا

الأمر تفصيلاً محكماً اعتماداً على ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال" **كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون يقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا سألوا الناس فقال الله تعالى﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾** " . فمن فعل ما أمر به من التزود فاستعان به على طاعة الله وأحسن منه إلى من يكون محتاجاً كان مطبقاً إلى التزود، فهو ملتفت إلى الجملة، لكن إذا كان المتزود غير قائم بما يجب عليه من التوكل على الله ومواساة المحتاج فقد يكون في تركه لما أمر به من جنس هذا التارك للتزود المأمور به، وفي هذه النصوص بيان غلط الطوائف فطائفة تضعف أمر السبب المأمور به فتفقده نقصاً أو قدحاً في التوحيد والتوكل، وإن تركه من المال التوكل الوحيد، وهم في ذلك ملبوس عليهم، وقد يقترن بالغلط (إتباع هدى في إخلاد إلى البطالة).

ولهذا تجد عامة هذا الضرب التاركين لما أمروا به من الأسباب يتعلقون بأسباب دون ذلك، فإما أن يعلقوا قلوبهم بالخالق رغبة ورهبة وإما أن يتركوا لأجل ما تبتلونه من العفو في التوكل واجبات ومستحبات أنفع لهم من ذلك، كمن يصرف همته في توكله إلى شفاء مرضه بلا دواء، أو نيل رزقه بلا سعي، فقد يحصل ذلك لكن كان مباشرة الدواء الحقيقي والسعي اليسير، وصرف تلك الهمة والتوجه في عمل صالح أنفع له، بل قد يكون أوجب عليه من تحصيل هذا

الأمر اليسير الذي قدره درهم أو نحوه، وفوق هؤلاء من يجعل التوكل والدعاء أيضا نقصاً وهذا غير لائق، وقد قال الله في الحديث القدسي " **كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ**". وقال فاستكسوني أكسكم وفي الطبراني وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم قال **"ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله وإذا انقطع فإنه إن لم يسيره لم يتيسر"**.

وقد غلطت طائفة من حيث ظنوا أن سبق التقدير يمنع أن يكون بالسبب والمأمور به كمن يتزندق فيترك الأعمال الواجبة بناءً على أن القدر قد سبق بأهل السعادة وأهل الشقاوة، ولم يعلم أن القدر سبق بالأمور على ما هي عليه، كما قد أجاب النبي ﷺ عن هذا السؤال في حديث عن بن أبي طالب وعمران بن حصين وسراقة ابن جعشم وغيرهم ومنه حديث الترمذي حدثنا بن أبي عمر حدثنا سفيان عن الزهري عن أبي حزامة عن أبيه قال سألت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقي بها وتقاه نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا فقال **"هي من قدر الله "**.

وطائفة تظن أن التوكل إنما هو من مقامات الخاصة لتقربه إلى الله بالنوافل كذلك قولهم في أعمال القلوب كالحب والرجاء والخوف والشكر ونحو ذلك وهذا ضلال مبين ، بل جميع هذه الأمور فروض على الأعيان باتفاق أهل الإيمان، ومن تركها بالكلية فهو إما

كافر وإما منافق، وهذا يتنافى مع التوحيد، ولكن الناس هم فيها كما هم في الأعمال الظاهرة، فمنهم من ظلم نفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات، وليس لهؤلاء المعرضون عن هذه الأمور علماً وعملاً بأقل من التاركين كما أمروا به من أعمال ظاهرة مع تلبسهم ببعض هذه الأعمال، بل استحقاق الذم والعقاب يتوجه إلى من ترك المأمور من الأمور الباطنة والظاهرة، والأمور الظاهرة لها أصولها وفروعها التي لا تتم إلا بها، والكثير من الناس ضلوا في فهمهم لبعض الآيات التي تتكلم عن الهداية، وظنوا أن الضلال والإيمان التي يحصلها الإنسان من خلق الله وليس من خلق الإرادة الإنسانية، ويعتبر ابن تيمية الأمر على النحو التالي :

أن الحق الذي جاءت به الشريعة إذا حمد الإنسان وأحسن شكر نعمة الله عليه بأن جعله محسنا، ولم يجعله مسيئا، كما يظهر قول أهل الجنة ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ**﴾.

وإذا شاء الإنسان عليه أن يعترف بذنبه ويستغفر ربه كما جاء في قوله عز وجل﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِر لَنَا وَتَرْحَمنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ**﴾، وهذا على عكس ما ذهب إليه إبليس عليه اللعنة الذي نفى التهمة والضلال عن نفسه ونسبها إلى الله، وهذا ما يظهر في قول البارئ﴿ **رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ**

وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِين﴾. ولا يحتج بالقدر على تلك الأمور لفعل محضور مع إيمانه بالقدر خيره وشره، وأن الله خالق كل شيء، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء ونحو ذلك، وهؤلاء هم الذين أطاعوا الله في قوله في هذا الحديث الصحيح "**فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه** "، ولكن بسط ذلك وتحقيق نسبة الذنب إلى النفس مع العلم بأن خالق أفعال العباد في أسرار ليس هذا موضعها ومع هذا فقوله تعالى ﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا . مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا﴾**، ليس المراد بالحسنات والسيئات في هذه الآية الطاعة والمعاصي كما يظن من يحرف بعضهم القرآن من نفسه.

ومعلوم أن معنى هذه القراءة يناقض القراءة المتواترة، وحتى يضمر بعضهم القول على وجه الإنكار له، وهو قول الله الصدق الذي يحمد ويرضى ، قولاً للكافر يكذب به ويذم ويستحفظ بإضمار الباطل الذي يبيعه من غير أن يكون في السياق ما يدل عليه، ثم إن

من يجعل هؤلاء ظنهم أن في هذه الآية حجج القدرية واحتجاج بعض القدرية بها، وذلك أن لا خلاف بين الناس في أن الطاعات والمعاصي سواء من جهة القدر، فمن قال أن العبد هو الموجد لفعلته دون الله أو هو الخالق لفعله، وأن الله لم يخلق أفعال العباد، فلا فرق عنده بين الطاعة والمعصية، ومن أثبت الخير أو نفاه أو أمسك عن نفيه وأثبته مطلعًا وفصل المعنى أو لم يفصله، فلا فرق عنده بين الطاعة والمعصية.

فتبيّن أن إدخال هذه الآية في القدر في قمة الجهالة، وذلك أن الحسنات والسيئات في الآية المراد بها المسار والمضار دون الطاعات والمعاصي، كما في قوله تعالى﴿ **وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾، وهو الشر والخير في قوله ﴿**وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** ﴾وقوله تعالى﴿ **وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي**﴾، فهذه حال فرعون ومثله مع موسى ومن معه كحال الكفار والمنافقين والظالمين مع محمد وأصحابه (إذا أصابتهم نعمة وخير قالوا لنا أو قالوا هذه من عند الله وإن أصابهم عذاب وشر تطيروا بالنبي وقالوا هذه بذنوبهم وإنما هي بذنوب أنفسهم لا بذنوب المؤمنين).

وهو سبحانه ذكر هذا في بيان حال القاعدين عند الجهاد الذين يلومون المؤمنون على الجهاد فإذا أصابهم نصر قالوا هذا من

عند الله وإن أصابهم محنة قالوا هذه من عند الذي جاءنا بالأمر والنهي والجهاد قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ إلى قوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَ أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَ آتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ إلى قوله ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي بسبب أمرك ونهيك قال تعالى ﴿ فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ وقال تعالى ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾.

وأما القسم الثالث في هذا الباب فهم قوم لبسوا الحق بالباطل، وهم بين أهل الإيمان وبين شرار الناس، وهم الخائضون في القدر بالباطل، فقوم يرون أنهم هم الذين يهدون أنفسهم ويضلونها ويوجبون لها فعل الطاعة والمعصية بغير إعانة وتوفيق للطاعة ولا خذلان في المعصية، وقوم لا ينسبون لأنفسهم فعلا وقدرة ولا أمراً فمن هؤلاء من يتخل عن الأمر والنهي فيكون أكفر الخلق، وهم في

احتجاجهم بالقدر متناقضون، إذ لا بد من فعل ما يحبونه وفعل ما يبغضونه، ولا بد لهم من دفع الضرر الحاصل بأفعال المعتدين ولذا جعلوا الحسنات والسيئات سواسية، ولم يذموا أحداً ولا يدفعوا ظالما ولا يقابلوا مسيئا، وأن ينجوا للناس من أنفسهم كل ما يشيبه مشينة التي لا يعيش عليها بنو آدم، إذ هم مضطرون إلى شرع في أمر ونهي أعظم إلى اضطرارهم إلى الأكل واللباس، فتخلوا بذلك عن واجبهم وهؤلاء سر انهيار الإسلام ومبعث تخلف المجتمع الإسلامي حضاريا وسياسيا واقتصاديا، وبقي التوحيد لدى هؤلاء الناس مجرد مصطلح نظري يفتقد إلى أبعاده الحقيقية التي أرادها الإسلام والتي بيناها من قبل.

ما أحوجنا اليوم إلى فهم هذه الحقائق وإلى إدراك قدرة الإرادة الإنسانية ودورها في التأسيس الحضاري وتفعيل عقيدة التوحيد وبعث قوة الإنسان، وتنشيط قدراته، وترسيخ ثقته في نفسه لصنع المجد وتقرير المصير، وآن الأوان لاتخاذ الأسباب، لأنها السبيل لنيل ما عند الله من فضل ومجد، وفي ذات الوقت هي السبيل لصنع الحضارة التي تعتبر واجب إسلامي على كل فرد مسلم موحد، لقد استكان المسلمون وتخلفوا عن الركب الحضاري وهم واهمون بأن الله قدر لهم هذا، لكن الواقع يجب أن يفهم بالعكس فقد تخلى عنا الله يوم عرف أن العجز والكسل كامن فينا، وليعلم

المسلمين اليوم أن الله لن يغير ما بهم ما لم تحيا فيهم الإرادة والعزيمة، ولن ينالوا توفيقهم إلا بطاعته، واتخاذ أسباب النصر، وما نملك أن نقول عن حالنا اليوم إلا أن الله بريء ونحن المذنبون، وفهمنا السلبي للتوكل على الله منعنا من الإبداع الحضاري، وجعلنا في ذيل الترتيب، ولم نكن في مستوى عقيدة التوحيد.

ويجب أن نفهم أن التوحيد ليس مجرد إعلان أو إشهار، بل التوحيد يقتضي الإحسان والعدل، ويقتضي العمل والإنتاج من أجل نصرة عقيدة التوحيد، ويقتضي التفاعل مع الآخرين والاهتمام بهم والتفاعل مع مشكلاتهم، والتوحيد لا يسمح بالهوية المزيفة التي يناقض تصورها النظري و اقعها العملي، ومجتمع لم يستطع أن ينقل عقيدته إلى غيره، ولم يبدع حضارة خاصة به ولم يملك طموحا إلى كونية قيمه، هو مجتمع بعيد عن مستوى الإسلام الكوني، وليس في مستوى عقيدة التوحيد.

الهوامش

1-جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني بيروت، ص260،261

2-التوحيد في الإسلام

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%88%D8%AD%D9%8A%D8%AF_%D9%81%D9%8A_%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%85

3- جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج1ص260،261

4-التوحيد في الإسلام

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%88%D8%AD%D9%8A%D8%AF_%D9%81%D9%8A_%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%85.

5- كمال بومنير، إتيقا الاعتراف عند أكسل هونيث، مجلة ممارسات، العدد 1، مخبر التراث والفكر المعاصر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر، الجزائر، 2013، ص 32.

6- أكسل هونيث: التشيؤ، دراسة في نظرية الاعتراف، تر: كمال بومنير، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، سنة 2012، ص 59.

7-أنظر: ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، المجلد1، دار المعارف، بيروت، ص 424-443.

ثانيا/ قدسية القيم والأخلاق وعلاقتها بالسعادة في التصور الإسلامي

قال عز وجل

﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

سورة الممتحنة الآية 8

قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم

" اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحسنةَ تَمْحُهَا وخَالقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ "

رواهُ التِّرْمذيُّ

ثانيا/ قدسية القيم والأخلاق وعلاقتها بالسعادة في التصور الإسلامي

الحديث عن الاخلاق والقيم في الإسلام هو حديث عن الرسالة الاسلامية في حد ذاتها، ذلك أن الإسلام جاء ليتم مكارم الأخلاق ويدعم محاسن القيم، ويهذب النفس والذوق، ويضبط العلاقات بين الناس، وينشر الخير بينهم، وقبل أن نتعرض لأهمية الأخلاق والقيم باعتبارهما ركيزة من ركائز الحضارة في الإسلام علينا أن نعرف ما لمقصود بالأخلاق والقيم وما قيمتها في التصور الإسلامي؟

1/ بين الأخلاق والقيم

يجب علينا أن ندرك مبلغ الخطورة في عدم التمييز بين القيم والأخلاق، لأن لكل منهما مجاله، ولا يمكن بأي حال الخلط بين مجال الاخلاق ومجال القيم حتى وإن كانت الأخلاق جزء من القيم، فالقيم تعني الاستقامة، كما جاء في قوله عزوجل ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ سورة الأنعام الآية 161.

أي أن دين الله مستقيما لا عِوَج فيه، والقيم أيضاً تعني الفضائل الدينيّة والاجتماعية والأخلاقيّة والجمالية والمعرفية والمنطقية التي يقوم عليها تفكير الفرد والمجتمع، وعلم القيم هو

العلم الذي يشمل الفضائل، وخاصّة القيم الأخلاقية، وتعرف مفردة القيمة في اللغة على أنها ثمن الشيء، وتأتي أيضاً بمعنى الاستقامة.[1]

أما معنى القيم الإسلامية فهي مجموعة من الأحكام والمعايير الناجمة عن تصوّرات الإسلام للكون والإله والإنسان والحياة، والتي تتكوّن نتيجة تفاعل الفرد والمجتمع مع الخبرات والمواقف الحياتية المختلفة، وعلى أساسها يتمكن الفرد من تحديد أهدافه وتوجهاته التي تتجسّد بسلوكه العملي بصورةٍ مباشرة أو غير مباشرة، والقيم تعمل على ضبط سلوك الفرد، وتترك له مساحة من الاختيار وتمتاز القيم في الدين الإسلامي بشموليتها وتكاملها، فهي تتعدى إلى توجهات الإنسان وكافة شؤونه، ولا تقتصر على أموره الخاصة بالحياة الدنيا، وإنّما تشمل الحياة الآخرة كذلك، كما انها قيم اجتماعية وكونية، إذ تنظم علاقة الفرد بمجتمعه المسلم وتحدد علاقة المسلم مع غير المسلم.

والقيم التي تستند إلى نصوص قطعية الثبوت كالقيم التي تكون في أصل العقيدة والعبادة وكذلك المتعلقة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا مجال للاجتهاد فيها، أما القيم التي تم استنباطها بالقياس فيمكن الاجتهاد فيها بحسب الزمان والظروف والبيئة وبذلك تمتاز بأنها مرنة تقبل التعديل بما يتماشى مع تغير

الأحوال في المجتمع الإسلامي، والملاحظ أن القيم الإسلامية جمعت بين الرحمة والقوة، وبين اللين والشدة، وهو ما يعرف بالوسطية يقول عزوجل ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة البقرة الآية 143.

وتوافق القيم الإسلامية فطرة الإنسان التي فطر الله الناس عليها، فتجمع بين متطلبات الجسد وأشواق الروح دون طغيان جانب على آخر، وما يؤيّد ذلك قوله عزوجل﴿ **وَ ابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ سورة القصص الآية 77.

وترتبط القيم الإسلامية برضا الله، فهي منزهة كليا عن المنافع والمصالح الذاتية الضيقة يقول عزوجل ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا** ﴾ سورة الإنسان الآية 9.

ويتعدى مفهوم القيم مفهوم الأخلاق ويتجاوزه، لأن القيم تشمل السلوك والمعرفة والجمال والمنطق، بينما تقتصر الأخلاق على السلوك الإنساني فقط، فإن كانت الاخلاق تهدف إلى ضبط

سلوك الإنسان فإن القيم تضبط سلوك الانسان وتفكيره ومنطقه كما تضبط أخلاق العلم لديه أيضا.

ومصطلح الأخلاق من المصطلحات الشائعة والمتداولة بين الناس بمفاهيم مختلفة ووفق تصورات متباينة، ويعود هذا التباين للاختلاف في مصدر الأخلاق عند الناس، وفي اللغة تعتبر الأخلاق جمع خلق، وهو العادة والسجية والطبع والمروءة والدين، وعند القدماء اعتبرت الأخلاق ملكة تصدر بها الأفعال، وقد يطلق لفظ الأخلاق على جميع الأفعال الصادرة عن النفس محمودة كانت أو مذمومة، فنقول فلان كريم الأخلاق، أو سيء الأخلاق، ويسمى أيضا علم الأخلاق بعلم السلوك، أو تهذيب الأخلاق أو الحكمة العلمية أو الحكمة الخلقية، والمقصود به معرفة الفضائل وكيفية اختيارها، لتزكوا بها النفس، ومعرفة الرذائل لتتنزه عنها النفس، ولمبادئ الأخلاق قيمة مطلقة، وهي الأصل الذي ترجع إليه جميع القيم الإنسانية.[2]

أما في الاصطلاح فإن مفهوم الأخلاق هو ما يطلق عليه جل فلاسفة الأخلاق العلم الذي يدرس السلوك الأخلاقي الصادر عن الذات الإنسانية أو الأفعال الصادرة عن النفس محمودة كانت أو مذمومة[3] .وبهذا تغدو الأخلاق مجموعة قواعد السلوك الثابتة التي تصلح لكل زمان ومكان، وتطبق الأخلاق على مختلف نواحي الحياة

الانسانية، فهي القواعد التي يسير وفقها سلوك الإنسان في كل المجالات، وعرف ابن رشد الأخلاق بقوله "إن الخلق هو حال للنفس به يفعل الإنسان أفعاله، والخلق قد يكون في بعض الناس طبعا وفي بعض الناس لا يكون إلا بالاجتهاد، وقد يوجد في بعضهم من غير التعمد كالشجاعة والحلم والعفة والعدل، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة أما الأخلاق المذمومة فإنها موجودة في كثير من الناس كالبخل والجبن والشر"[4].

ويميز ابن الرشد في هذا التعريف بين طريقتي الاكتساب والفطرة، كما أنه يقسم الأخلاق إلى أخلاق مذمومة ومحمودة طبعت طابعا كبيرا وتوسع انتشارها بين الناس.

ويرى ابن رشد أن سبب هذا الانتشار يعود إلى غياب الاستعمال الحقيقي للعقل بالتمييز بين الأخلاق الحسنة والأخلاق المذمومة، ونشير هنا إلى أن الأخلاق مرتبطة بسلوكيات الأفراد، وهي من العلوم المعيارية غايتها ما يجب أن يكون عليه الفعل والسلوك الأخلاقي.

ووظيفة الأخلاق هي توجيه الفعل الخلفي إلى ما يجب أن يكون ويمكن التمييز بين علم الأخلاق وفلسفة الأخلاق باعتبار أن علم الأخلاق هو مجموعة القواعد العملية التي تقود السلوك الإنساني

إلى ما يجب أن يكون عليه الفعل أما فلسفة الأخلاق فهي النظر في هذه القواعد وتحليلها تحليلا نظريا، وهي الفلسفة التي يكون موضوعها قيمة الخير.[5]

ونعني بالأخلاق أيضا مجموع العادات الموروثة والمكتسبة واذا كانت الأخلاق مطلب حضاري كوني فإن الإسلام قدسها ولم ينف وجودها في غير المجتمع المسلم وشجع عليها و أمر بها، وهذا ما جاء نصا صريحا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقد بين أن الغاية الأولى من بعثته أنه يريد أن يغرس مكارم الأخلاق في نفوس أمته والبشرية جمعاء يقول صلى الله عليه وسلم" **جئت لأتمم مكارم الأخلاق**"[6]، أي أنه يتعامل بقانون الأخلاق والخلق والحسن حتى وإن كان هذا الخلق ممارسا قبل بعثته، وعليه فالأخلاق مرتبطة بطبيعة الذات الإنسانية التي يولد عليها الإنسان إضافة إلى ما يكتسبه من حكمة عن طريق تجارب الحياة.

وخير دليل على أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم ينكر الاخلاق الفاضلة عند باقي المجتمعات هو اعجابه بحلف الفضول الذي كان تجمعا وميثاقا إنسانيا تنادت فيه المشاعر الإنسانية لنصرة الإنسان المظلوم، والدفاع عن الحق، ويعتبر من مفاخر العرب قبل الإسلام، قال صلى الله عليه وسلم . عن هذا الحلف "

لقد شهدت مع عمومتي حلفا في دارعبد الله بن جدعان، ما أحبّ أن لي به حمر النعم " رواه أحمد.

إنّ الحب والحمية للحق والحرص على تحقيق العدل هو هديه رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم للبشرية فهو الذي طهر المجتمع من التمييز والعنصرية يقول عليه الصلاة والسلام «**أيها الناس إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها "** رواه البخاري، وهذه القيم والأخلاق ولا شك هي الأخلاق التي ينادي بها إنسان اليوم، بل في كل زمان ومكان، وبها تتغنى هيئة الأمم وهيئات حقوق الإنسان وتنادي بها العلمانية المعاصرة.

2/ أقسام النفس

ترتبط الأخلاق بالنفس الإنسانية ولا يمكن الحديث عن الأخلاق في غياب النفس البشرية، لأن النفس هي التي تلزم بهذه الأخلاق، وتعتبر مشكلة النفس الإنسانية من بين أكبر وأهم المشاكل الميتافيزيقية التي شكلت جانب لا يستهان به من تفكير الفلاسفة بصفة عامة وفلاسفة المسلمين بصفة خاصة، ويعرف ابن رشد النفس بقوله " هي صورة لجسم طبيعي آلي"[7]، فالنفس عند

ابن رشد صورة ملتحمة بالجسم، ولا يمكن أن تفارقه من ثمة فالعلاقة بين النفس والجسد مثل العلاقة بين الصورة والمادة، وإن فارقت النفس الجسم بعد موت الإنسان يطلق عليها عند المسلمين اسم الروح ورغم أن النفس واحدة إلا أنها في تقلباتها أقسام، وهذا ما جاء نصا صريحا في القرآن الكريم، وفيه نجد التقلبات التالية للنفس:

أ-النفس الأمارة بالسوء

هذه النفس تحملها غالبية الناس، وتقود صاحبها إلى اتباع الهوى قال تعالى في كتابه المبين﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة يوسف الآية 53.

وما أبرئ نفسي من الخطأ والزلل فأزكيها، فنفوسَ العباد تأمرهم بما تهواه، وهواها في غير ما فيه رضا الله، إلا ما رحم ربي فينجيه الله من اتباع هواها وطاعتها فيما تأمرُه به من السوء، وهذه النجاة ممنوحة لكل من اتبع أوامر الله.

ب-النفس اللوامة

يعيش حامل النفس اللوامة في صراع ومغالبة بين الحق والباطل وبين الخير والشر، قال عزوجل ﴿**لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴾ سورة القيامة ا لآيتين 1،2.

ورغم الاختلاف بين العلماء في تفسيرهم لهذا التقسيم الرباني إلا أن الأغلبية منهم يتفقون على النفس اللوامة هي التي تلوم صاحبها على الخير والشرّ، وتندم على ما فات وتلوم عليه.

ج-النفس المطمئنة

وهذه النفس خاصة بالأتقياء الذين امتثلوا لأوامر الله وبلغوا مرتبة الحمد يقول عزوجل في كتابه الكريم﴿ **يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَة مَّرْضِيَّة فَٱدْخُلِي فِي عبادي وَٱدْخُلِي جَنَّتِي** ﴾ سورة الفجر الآيات 27،28،29،30.

فالنفس المطمئنة هي النفس التي وعد الله تعالى صاحبها بالنعيم لذا فهي أمل وهدف ومبتغى كل محب لله عز وجل، فالطمأنينة محصلة التصديق واليقين بالله، والطمأنينة في الآخرة وليدة الاطمئنان في الدنيا يقول عزوجل ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ سورة الرعد الآية 28.

وهناك اتصال كبير بين النفس والعقل، وهذا الاتصال هو السبيل إلى بلوغ السعادة والنفاذ إلى الشريعة، وعلاقة العقل بالنفس هي التي تحدد طبقات الناس، فلا يمكن بلوغ الأخلاق الراقية الحضارية إلا إذا حكم العقل للنفس وسيطر عليها وعمل على توجيهها، فالأخلاق هي سمو الإنسان بنفسه.

3/ تحصيل السعادة وعلاقتها بالأخلاق والسياسة

تحصيل السعادة مرتبط بالسياسة وليس بالأخلاق فقط فغاية الأخلاق هي الوصول بالنفس إلى أعلى مراتب الفضيلة هذه الأخيرة التي تحكم النفس وتوجهها إلى الصلاح بغية الوصول إلى السعادة الدنيوية والأخروية، وقد بين ابن رشد معنى السعادة وسبل تحقيقها حيث يرى أن السعادة هي " الخير الأقصى وتمام الخيرات جميعا وأن تطلب لذاتها لا لشيء آخر"[8]. ومعنى هذا أن السعادة هي الغاية القصوى للإنسان التي ما بعدها غاية، فالسعادة تطلب لذاتها لا لشيء آخر بعدها.

وبين ابن رشد أن الدين الإسلامي يولي أهمية كبيرة للسعادة الدنيوية والأخروية يقول في ذلك " قد اتفق الكل على أن للإنسان سعادتين آخروية ودنيوية"[9]. ويعني هذا اتفاق الأدلة الشرعية والبراهين العقلية على إقرار السعادة الدنيوية والأخروية.

ويحاول ابن رشد أن يدلل على وجود السعادة الأخروية معتمدا في ذلك على الأدلة العقلية والشرعية يقول "وبني ذلك عند الجميع على أصول يعترف بها عند الكل، منها أن الإنسان أشرف بكثير من الموجودات، ومنها أنه إذا كان كل موجود يظهر من أمره أنه لم يخلق عبثا، وأنه إنما خلق لفعل مطلوب منه، وهو ثمرة وجود الإنسان"[10]. فالإنسان أشرف وأفضل الموجودات، وبالتالي لم يخلق عبثا بل

خلق من أجل غاية، وقد نبه المولى عزوجل على وجود هذا المعنى في جميع الموجودات في كتابه العزيز فقال في كتابه الكريم ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾سورة الذاريات الآية 56، أي ما خلقت الثقلين الجن والإنس إلا لعبادتي وتوحيدي لا لطلب الدنيا والتكالب عليها وتقتضي السعادة وجوب العبادة القائمة على المعرفة بالخالق يقول عزوجل ﴿ **وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون** ﴾ سورة يس الآية 22.

وبعد أن دلل ابن رشد على وجود السعادة الأخروية بالأدلة الشرعية والعقلية معا نجده يهتم أيضا ببيان ماهية هذه السعادة الأخروية، وأين هي من السعادة الدنيوية، فيطلق على ما يتحقق للإنسان من سعادة الدنيا اسم «السعادة المشتركة». هذه الأخيرة تكمن في كمال أفعال النفس الإنسانية[11].

ويذهب ابن رشد إلى القول بأن الشرائع وخاصة شريعتنا الإسلامية قد عرفت من الأمور النظرية مالا بد لجميع الناس من معرفته، وهي معرفة الله تبارك وتعالى، ومعرفة الموجودات الشريفة ومعرفة السعادة، وكذلك عرفت من الأعمال القدر الذي تكون به النفس فاضلة بالفضائل العملية[12].

ومعنى هذا أن السعادة الدنيوية تحصل للإنسان إذا استطاع أن يتحرر من سيطرة البدن، لما له من قوى غريزية وشهوانية، ومن ثم الوقوف على الحقائق الأولى وعلى رأسها الاتصال بالله سبحانه وتعالى، بالإضافة إلى ما سماه ابن رشد بالسعادة المشتركة، أشار كذلك إلى ما أسماه بالسعادة الأخيرة أو السعادة القصوى، وهي السعادة الأخروية، فربط بين من تحقق له السعادة المشتركة، وبها تزكو نفسه وبين تحصيل السعادة الأخيرة، ومن لم يتمكن من تحصيل السعادة المشتركة، فتظل نفسه الخبيثة مرتبطة بما لها من شهوات[13].

والسعادة القصوى لا ينالها كل إنسان، وليست في مقدور كل إنسان، فالذي تتحقق له هذه السعادة يجب أن تزكو نفسه ويتنزه عن الشهوات، وإن كانت النفس خبيثة زادتها المفارقة خبثا، لأنها تتأذى بالرذائل التي اكتسبت، وتشتد حسرتها في هذا المقام يقول عزوجل﴿ **أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِين**﴾ سورة الزمر الآية 56، أي يا حسرتي وندامتي على تفريطي وتقصيري في طاعة الله وفي حقه، وإنني كنت من المستهزئين بشريعة الله ودينه.

ويرى ابن رشد أن السبيل للوصول إلى تحقيق السعادة هو استخدام العلم والدرس والتربية [14]، أي أن الاعتماد على العقل والدرس وترقية المدارك الإنسانية هو السبيل لتحقيق السعادة.

نستنتج من هذا أن السعادة هي تمام الخيرات وغايتها، وأن السبيل للوصول إليها هو استخدام العلم والدرس، وهذا ما سلكه رسولنا الكريم إذ قام بتربية الصحابة رضوان الله عليهم وعلمهم كيف يبلغون السعادة عن طريق التوحيد والانقياد لأوامر الله يقول عزوجل﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ سورة الجمعة الآية 2.

وعمل ابن رشد على ترتيب درجات السعادة بداية بالسعادة المشتركة، وهي تلك الدرجة من السعادة الممكنة للناس جميعا متى انتهوا عن الرذائل واكتسبوا الفضائل التي اتفقت عليها الحكمة والشريعة[15].

معنى هذا أن السعادة المشتركة يمكن لأي إنسان الحصول عليها، عن طريق تغليب الفكر والعقل عن الأهواء والشهوات فالسعادة المشتركة تكمن في كمال أفعال النفس الإنسانية، أما النوع الآخر أو الدرجة الأخرى من السعادة الذي قال به ابن رشد

فهو السعادة الحقيقية أو السعادة الخاصة، أو ما عرف عند الفلاسفة المسلمين بالاتصال أو السعادة القصوى، وهو ذلك الذي يحدث بعد تجاوز ما أسماه بالسعادة المشتركة، وبفضل حدوث الفضيلة النظرية للإنسان التي تقوم على أعمال الفكر الخالص دون معوقات من جانب البدن بما فيه من غرائز وشهوات[16]، أي أن السعادة القصوى أو السعادة الأخروية تحصل بعد تجاوز السعادة المشتركة.

ويذهب ابن رشد إلى القول بأن هذه السعادة القصوى يصعب تحقيقها في الحياة الدنيا، لكن قد يبلغها البعض أو القلة القليلة ممن بلغ درجة الحكمة فيتحول إلى إنسان فاضل.

ويربط ابن رشد ربطا محكما بين الاخلاق والسعادة والسياسة فهدف السياسة هو تدبير شؤون النفوس وتحسين سلوك الأفراد مما يعني أن السياسة يجب أن تعمل على هيكلة الأفراد هيكلة حسنة.

وأعطى آراءه في طبيعة الحاكم الظالم فرأى فيه الشخص الذي يحكم الشعب من أجل نفسه وليس من أجل الشعب ذاته، وظل ابن رشد في آرائه السياسية متوافقاً مع رؤيته لدور الفلسفة التي يجب أن تعطي الأولوية إلى جانب للشريعة، فاعتبر أن الرؤساء يجب أن

يكونوا من الحكماء أي من الفلاسفة، فالحاكم يجب أن يكون عارفاً بالشرائع التي سنّها المشرّع الأوّل(النبي) ويكون له القدرة على استنباط ما لم يصرح به الشرع، وبما أن ابن رشد عرف علم السياسة بأنه علم تدبير شؤون المدينة ثم جاء ابن خلدون من بعده وعرفّ سياسة المدينة بأنها تعني تدبير المنزل أو المدينة بمقتضى الأخلاق والحكمة لحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقائه، فهذا يعني أن الاجتماع ضرورة إنسانية، ولا يمكن تحقيق السعادة بعيدا عن المجتمع، كما لا يمكن أن نعيش داحل المجتمع دون أخلاق وقيم ، ولا يستطيع الإنسان أن يعيش ويحقق السعادة منفرداً وقد يجتمع الناس لأغراض متعددة، إلا أنّ كثيراً من هذه الاجتماعات تعد اجتماعات فاسدة وضالة، وهناك نوع واحد فقط من هذه الاجتماعات هو ما يسمى بالاجتماع الفاضل، وهذا الاجتماع يتأسس على الربط بين الأخلاق والسياسة.

وارتبطت الأخلاق بالسياسة ارتباطاً وثيقا في الإسلام، وصار كلاهما ينشد غاية واحدة تتمثل في إيجاد الفضيلة والسعادة سواء أكانت في المجال الفردي(الأخلاق) أم المجال الاجتماعي (السياسة).

ولا تقوم دولة بغض النظر عن المعتقد الديني إلا بترسيخ أسس العدالة فيها، ولا تتحقق هذا الأخيرة إلا بسلطان عادل " والسلطان العادل من عدل بين العباد وحذر من الجور والفساد

والسلطان الظالم شؤون لا يبقى ملكه ولا يدوم، فينبغي أن تعلم أنّ عمارة الدنيا وخرابها من الملوك فإذا كان السلطان عادلا عمرت الدنيا وأمنت الرعايا ...وإذا كان السلطان جائرا خربت الدنيا"[17].

إن عمارة الأرض وأمان الرعية مرتبط بعدالة السلطان وفسادها وخرابها مرتبط بظلمه لهذا عدّها "الغزالي" من كمال العقل فقال " واعلم أيها السلطان وتبيّن أن ظهور العدل من كمال العقل وكمال العقل أن ترى الأشياء على ماهي، وتدرك حقائق باطنها ولا تغتر بظاهرها"[18].

فالعدل أمارة على العقل أي التلازم بين العدل والعقل رغم اختلاف فضيلة العقل وهي العلم والحكمة عن فضيلة العدل وهي الإنصاف إلا أنّ مفهوم العدل يكون انطلاقا من أعمال العقل وبه توازن الأفعال وترجح الأقوال، فالعقل هو الضابط لمفهوم العدالة والعدالة هي الأمارة على العقل لذا نجد أنّ "الماوردي" اشترط العدالة في تولي القضاء ومنصب الحكم وفي هذا قال " والشرط الخامس العدالة وهي معتبرة في كل ولاية، والعدالة أن يكون صادق اللهجة ظاهر الأمانة عفيفا عن المحارم متوقيا للمآثم بعيدا عن الريب مأمونا في الرضا والغضب مستعملا لمروءة مثله في دينه ودنياه"[19] وكأنّ العدالة هنا تعني الصدق والأمانة والعفّة واجتناب الريب وتوقي الآثام، وتحقيق التوازن عند الغضب في أمور الدين

والدنيا فجعلت شرطا في الحاكم على اعتبار أنه من يسعى لتحقيق العدالة بين الرعية.

إنّ ما طرحه شيخ الاسلام "ابن تيمية" والإمام «الغزالي" من مباحث في مسألة العدالة يدل على أنّ العدالة من الأهداف السامية التي تجمع العديد من الخصال والفضائل التي جاءت بها الشريعة الإسلامية ولعّل ملخص أقوالهم يكمن في كون أن العدالة هي: الفضيلة الأخلاقية الشرعية التي تطبع في النفوس البشرية، فتكون عادلة في ذواتها، ومن ثمّ مع غيرها فتتجسد في أفعال الحاكم وأحكامه، وتنتقل من كونها مسألة أخلاقية إلى مسألة سياسية تحقق الأمن والاستقرار. وهذا ما سنبينه لاحقا في هذا الكتاب.

إن للأخلاق أهمية كبيرة في الدين الإسلامي وسلوك الإنسان المسلم هو انعكاس لكل معنى يحمله في قلبه، وكل ما يحمله الفرد المسلم في قلبه يجب أن ينعكس ويظهر أثره على جوارحه، فأفعال الإنسان دائما موصولة بما في نفسه من معانٍ وصفات، وصلاح المسلم يكون بصلاح أخلاقه، لأن الفرع بأصله، فإذا صلح الأصل صلح الفرع، ولهذا كان النهج السديد في إصلاح الناس وتقويم سلوكهم وتيسير سبل الحياة الطيبة لهم يبدأ من إصلاح النفوس وتزكيتها، وغرس القيم الجيدة فيها، وأكد الإسلام على ضرورة إصلاح النفوس، مبينا أن تغير أحوال الناس من سعادة إلى

شقاء، ومن يسر إلى عسر، ومن رخاء و طمأنينة إلى قلق، ومن عز إلى ذل، يعود إلى تغير ما بأنفسهم من معانٍ وصفات، فمعاني الإسلام التي صنعت العز والحضارة سابقا شوهت معانيها مع المسلمين اليوم.

وتُعتبر القيم الإسلامية بمثابة الجانب الروحي والمعنوي للحضارة الإسلامية، فهي أساسها، وهي التي تضمن صمود وبقاء الحضارة في كل عصرٍ وعبر كل جيلٍ، وتجدر الإشارة إلى أنّ الحضارة الإسلامية تعتبر من أكثر الحضارات التي أوفت الأخلاق والقيم حقها.

والإسلام يبني الاخلاق على فلسفة الفعل، وليس على أساس التصورات فحسب، والأخلاق العملية أهم من الأخلاق النظرية مع وجوب تنزيه الفعل الأخلاقي، وفي الإسلام إما أن تكون أقوالنا كأفعالنا أو تكون أفعالنا كأقوالنا، حتى يحدث الانسجام بين العقل المنظروالإنسان المطبق.

الهوامش

1- جميل صليبا ، المعجم الفلسفي،ج2 ، دار الكتاب اللبناني ، لبنان ، ص214

2 جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، لبنان، ص .49

3- عبد الرحمان بدوي: الموسوعة الفلسفية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ج1، (د.ت)، ص .185

4- ابن رشد: تلخيص الخطابة، تحقيق عبد الرحمان بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1960، ص .199

5- عادل عوا، القيمة الخلقية، مطبعة جامعة دمشق، 1960/ ص 12.
6- أحمد عطية الله، القاموس الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مج1، 1963، ص 48.
7 ابن رشد، رسالة في النفس، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر أياد الدكن، ط1، 1974، ص 10
8- المرجع نفسه، ص 11
9- ابن رشد:مناهج الأدلة في عقائد الملة، تحقيق وتقديم محمود قاسم، مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1955، ص240
10 - المرجع نفسه ص241.
11-عبد الحي محمد قليل، المذاهب الأخلاقي في الإسلام (الواجب، السعادة)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1984، ص270.
12-ابن رشد، مناهج الأدلة في عقائد الملة، تقديم محمود قاسم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1955، ص240.
13- المرجع نفسه، ص242، 243.
14-فوضيل بو مالة : نقطة انطلاق الأخلاق في فكر ابن رشد، مجلة فصلية في الفكر والعلوم و الإستشراق، دار ماربيور، الجزائر، 1988، ص126.
15- عبد الحي محمد قابيل:المذاهب الأخلاقية في الإسلام(الواجب-السعادة)، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، 1984، ص 300.
16-ابن رشد وفلسفته، دار النشر جامعة الإسكندرية، مصر 1953، ص45. :فرح انطون
17-الغزالي، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، مرجع سابق، ص44.
18-المرجع نفسه، ص.23
19-الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار ابن قتيبة، الكويت، ط1، 1989، ص89.

ثالثا/ المسؤولية والعدالة

يقول عز وجل

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

سورة الانعام الآية 152

ثالثا/ المسؤولية والعدالة

يرتبط موضوع المسؤولية أشد الارتباط بجوهر الإنسان، فكما نقول في مجال الفلسفة في تعريفنا للإنسان بأنه حيوان عاقل نقول أيضا إنه كائن مسؤول، ذلك أن الإنسان يعرف أكثر بخاصية المسؤولية أكثر منه بخاصية الحرية، فهي تنصب على الإنسان أولا بدون التساؤل عن شروطها، لأن الشخص يعتبر العلة الأولى في القضية.

ومر مفهوم المسؤولية تاريخيا بمراحل وأطوار مختلفة، واتخذ دلالات متنوعة شملت ميادين ومجالات متنوعة منها علم الاجتماع والسياسة والقانون والفلسفة، ففي المجتمعات البدائية كان الفعل الضار يتبع برد فعل مماثل له، فكان من حق المتضرر أن يثأر لنفسه على أساس فكرة الأخذ بالانتقام الشخصي، وتطورت الشرائع القديمة فنظمت القصاص وأجازت للمتضرر أن يحدث بمن أضره مثل الأذى الذي أصابه، وألزمته أن يراعي هذا الحد وألا يتجاوزه "السن بالسن والعين بالعين"، وذلك أن الإنسان في هذه المرحلة وجد في قانون مقابلة المثل بالمثل في القصاص روح العدل والإنصاف، ومنه في لغة ميزان المثل بالمثل، كانوا يقابلون العنف بالعنف والعين بالعين، ومؤدى هذا القانون أنه من يتعدى عليك فلابد من الرد عليه بمثل ما تعدى به عليك بغرض الدفاع عن

النفس، ووجد فيه الإنسان الوسيلة المناسبة لمحاربة الانتقام الشخصي والجمعي، وبهذا ظهرت فكرة المسؤولية التي تعد مقدمة ضرورية للعدالة.

واتخذت المسؤولية مفهوما جديدا في العقود الأربعة الماضية مع العديد من المفكرين، وسنبحث في هذا الجزء من الكتاب فيما إذا كانت فكرة المسؤولية والعدالة التي ينادي بها المفكرون -ومن ورائهم المجتمع المعاصر-هي ذاتها التي جاءت في التصور الإسلامي.

1-تعريف المسؤولية

يعرف جميل صليبا المسؤولية في معجمه بأن المسؤول من الرجال هو المنوط به عمل تقع عليه تبعيته، ويشترط في المسؤولية الحقيقية أن يكون هناك قانون يأمر بالفعل، أو بالترك وأن تكون مخالفة المرء لما يأمر به القانون صادرة عن إرادته[1].

وتعني المسؤولية في اللغة العربية كل ما هو واجب على الإنسان فعله، وبذلك فهي تأخذ معنى الإلزام[2].

وأما من الناحية الاصطلاحية فالمسؤولية هي إقرار المرء بما يصدر عنه من أفعال وباستعداده لتحمل نتائجها وما يصدر عنه من أفعال، كما أن المسؤولية هي الجزاء، بمعنى ما يستحقه الإنسان من ثواب أو عقاب.[3]

من خلال التعاريف السابقة الخاصة بمفهوم المسؤولية نجد أنها مقترنة بثلاثة عناصر أساسية وهي: الإلزام والالتزام والجزاء، فإذا انتفى الالتزام انتفت معه المسؤولية ولو انعدمت المسؤولية فلن يكون ثمة جزاء وهكذا.

ويعرف " فوليكي" المسؤولية بقوله "هي ضمان السيرة الحسنة وتحمل نتائج الأفعال خصوصا ما ترتب من آثار سيئة" [4]. أي هي قدرة الفرد على المحافظة على سيرته الأخلاقية والقيمية الحسنة التي لا تسبب الحذر لغيره، كما أنها تعني وجوب تحمل الفرد لتبعات أفعاله مهما كانت هذه الأفعال خاصة منها الأفعال السيئة التي تضر الإنسان والوجود عامة. ومنه يمكن تقسيم المسؤولية إلى قسمين:

أ-المسؤولية الفردية

والتي تعني ضرورة تحمل الفرد لنتائج أفعاله الصادرة عنه دون وساطة شخص آخر أو تدخل شيء مستقل عنه، وكذلك تحمل مسؤولية الآخر أو الغير، وتكون عندما يأخذ شخص رعاية أو حماية شخص آخر في إطار معين، ومن ثم يتحمل النتائج الإيجابية والسلبية التي تترتب عن ذلك مثل: مسؤولية الآباء عن تربية أبنائهم وتنقسم المسؤولية عموما إلى أنواع عدة فمنها المسؤولية القانونية (المدنية والجنائية) والاجتماعية والأخلاقية[5]. وتظهر قيمة المسؤولية الفردية في الإسلام في قوله عز وجل ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ**

لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا ۞ سورة الاسراء الآية 36، فمنطق الحساب والمسؤولية في الدين الإسلامي حساس جدا، ذلك أن الانسان سيسأل حتى عن طرفة العين ويكون حسابه بالذرة.

ب-المسؤولية الاجتماعية

المسؤولية الاجتماعية هي التزام المرء بقوانين المجتمع ونظمه وتقاليده، إنها المسؤولية التي يكون فيها الشخص مدانا أمام الرأي العام للقرية أو العائلة أو المجتمع في حالة انحرافه عن تقاليد مألوفة.

وقد أثبت التصور الاجتماعي بأن المسؤولية لا تتمركز حول الفرد بل كانت في الأصل جماعية، لأنها ترجمة وانعكاس للعادات والمعايير الاجتماعية والأعراف والتقاليد، فقد كان ينظر إلى الخطأ الذي يرتكبه الفرد على أنه عار ودنس ينطبق على جميع أفراد الأسرة والقبيلة والأصدقاء.

المسؤولية الاجتماعية تقع عندما يسأل الإنسان عن أفعاله أمام الرأي العام، أي المجتمع والمحاكم إنها تختصر في إصلاح الأضرار المتسببة للآخر، فنحن مسؤولون عن أفعالنا أمام المحكمة وأمام سلطة اجتماعية، إنها مسؤولية تجعلنا نستحق العقاب عندما تخالف أفعالنا قواعد الجماعة.

فعندما تتعدى نتائج أفعالنا إلى الآخر مخترقا العرف أو القانون حينها تترجم المسؤولية الاجتماعية موضوعيا حسب القانون أو العرف، وهي الفكرة ذاتها التي سبق إليها الإسلام وهذا ما يظهر في قوله ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ سورة الأعراف الآية 199، فالمسؤولية الاجتماعية باختصار هي التزام المرء بقوانين ومبادئ والمجتمع ونظمه وأعرافه وتقاليده.

وعليه فالواقعة الاجتماعية واقعة متعالية تتجاوز الضمائر الفردية، فما تفكر به الجماعة، وتحس به وتريده أن يتغلب على ما يفكر فيه الفرد ويحس به ويريده، ومنه يؤثر المجتمع على الأفراد الذين يكونونه تأثيرا ملحوظا.

إن المجتمع هو صاحب الدور الأساسي في تكوين حياة الأفراد الذهنية، وهو مصدر الواجب والقيم، فالمجتمع حسب ما يتصوره عالم الاجتماع الفرنسي دوركايم هو الذي يفرضها لأنه الواقع الذي يفسر لنا القيم التي نتمسك بها ونخضع لها، ذلك أن الأخلاق تبدأ حيث يبدأ التعلق بجماعة ما، فالمجتمع هو الذي ينتجها ويفرضها علينا، وهو الذي يتكلم فينا حين يتكلم الضمير.

والحضارة عمل اجتماعي في أساسه، ويرجع إلى اتحاد الناس وارتباطهم فيما بينهم وبين الأجيال المتعاقبة منهم، وباختصار فالمسؤولية الاجتماعية هي التزام المرء بالقواعد الأساسية التي

تنظم المجتمع الذي يعيش فيه ذلك بأن لا يخالف المرء ما جاء به المجتمع من أعراف وقيم وتقاليد، لأن المسؤولية تقع على الفرد في نظر الجماعة إذا خرج عنها وعن الضمير الجمعي وهذا ما جاء في وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال" **المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة**" رواه البخاري، وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "**المؤمن لِلْمؤْمن كالبُنْيان يَشُدُّ بَعْضُه بَعْضا، ثُمَّ شَبّك بين أَصابعه**" رواه البخاري. ومعنى هذا أن الإسلام يريد للفرد أن يكون في خدمة مجتمعه، ويكون عونا للجماعة وخادما ونافعا للناس، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " **المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس**" رواه الطبراني في الأوسط.

ج-المسؤولية القانونية

المسؤولية القانونية هي المسؤولية التي يترتب عليها جزاء قانوني جراء مخالفة واجب من الواجبات الاجتماعية، فهي تنهض عند

إخلال الإنسان بقاعدة قانونية يحددها القانون، مما يستوجب جزاء قانونيا يختلف باختلاف القاعدة القانونية التي خولفت [6].

كما أن المسؤولية القانونية تقوم أمام شخص آخر هو المتضرر فهي وحدها التي يترتب عليها جزاء قانوني يتمثل في العقوبة أو التعويض [7].

والمسؤولية القانونية تتصل بعلاقة الإنسان مع غيره من الناس ولا تتحقق إلا إذا الحق الضرر بالغير.

كما أن الجزاء في المسؤولية القانونية يحدده القانون، وتنقسم المسؤولية القانونية إلى:

- مسؤولية إدارية

وتترتب عند مخالفة الموظف العام لقاعدة من قواعد القانون الإداري، والجزاء يتمثل في مثل هذه الحالة في عقوبة تأديبية توقع على المخالف [8].

-مسؤولية مدنية

هي التزام الشخص بتعويض الضرر الذي سببه لشخص آخر والجزاء فيها يكون بتعويض الضرر الذي ترتب على إخلاله بالتزام يقع عليه، يعرفها جميل صليبا بقول " إنها المسؤولية التي توجب على الفاعل الذي سبب لغيره ضررا أن يعوضه منه سواء كان سبب الضرر بإرادته أو بإهماله أو تهوره" [9].

إنها تختصر في إصلاح الأضرار المتسببة للآخر، ويكون الشخص مسؤولا مدنيا عندما يجبره القانون على إصلاح الضرر الذي ألحقه بالغير.

نستنتج أن موضوع المسؤولية المدنية هو المطالبة بالتعويض عن الضرر، ومن ثم فالجزاء هو إلزام المسؤول بتعويض الشخص المتضرر الذي له وحده حق المطالبة بالتعويض، كما يجوز له الصلح أو التنازل عن دعواه قبل المسؤول [10]. فالمسؤولية المدنية ترتكز على القاعدة العامة المقررة في القانون المدني، والتي تقتضي بأن كل خطأ سبب ضررا للغير يلزم من ارتكبه بالتعويض. فهي لا تقوم إلا إذا أصيب شخص معين بضرر، ومنه نلمس أن مهمتها الأساسية هي الالتزام بتعويض الضرر، إنها ترتبط بالضرر وجوبا وعدما، لأن التعويض يتحدد على أساس الضرر والقاضي هو الذي يقدره.

ج-مسؤولية جنائية أو جزائية

هي تلك المسؤولية التي تقع على شخص ارتكب مخالفة أو جنحا أو جريمة، وهي ذات علاقة وثيقة بالمسؤولية الأخلاقية [11]. حيث يتحمل الجاني مباشرة ما يترتب عن جنايته من عقوبات، إنها الفعل الذي بمقتضاه يجب على الشخص أن يسأل عن مخالفته، ويستحق مقابل ذلك عقوبة منصوص عليها، أي أن المسؤول جنائيا

هو الذي يمكنه أن يكون قانونيا مرتكبا لجريمة أو جنح سواء أمام محكمة الجنح أو محكمة الجنايات.

فهي تنشأ عند حدوث ضرر يصيب المجتمع، والجزاء يتجسد في عقوبة جنائية توقع على الجاني أي أن الجزاء فيها يكون على فعل موجه ضد المجتمع بخلاف المسؤولية المدنية التي يكون فيها الجزاء على الفعل الضار الذي يصيب الفرد، والجزاء في المسؤولية الجنائية هو العقوبة التي وضحها قانون العقوبات والتي تطالب بها النيابة العامة باعتبارها ممثلة المجتمع [12]. وعليه فهي تختلف عن المسؤولية المدنية التي يحق فيها الصلح أو التنازل عن دعواه قبل المسؤول أما المسؤولية الجنائية لا يجوز فيها الصلح ولا التنازل في الجريمة لأن الحق في العقوبة عام وملك للمجتمع.

ويلاحظ أن الفعل الواحد قد تترتب عليه المسؤولية الجنائية والمدنية في نفس الوقت كالجرائم التي تصيب الجسم والنفس كالقتل والضرب، كما هناك أفعال تترتب عليها المسؤولية الجنائية دون المدنية وهي تلك الأفعال التي تمس المجتمع دون أن تضر شخصا من الأشخاص كجرائم الشروع والتشرد وغيرها.

وتعترف أحكام القانون الدولي الإنساني اليوم بالمسؤولية الجنائية الدولية الفردية للشخص الذي ارتكب أو أمر بارتكاب أي مخالفات، وعادة ما توصف هذه المخالفات المؤدية لتلك

المسؤولية "بجرائم الحرب" التي تشمل القتل العمد والتعذيب والمعاملة اللا إنسانية وهذا ما جاء في القرآن الكريم يقول عزوجل۞ **وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا** ۞ سورة الإسراء الآية 33

ويتحمل الفرد تلك المسؤولية وفقا للقاعدة التي تعترف بها كافة النظم القانونية الداخلية والدولية القائلة بأنه لا عذر لأحد في جهل القانون [13]. ولهذا يحمل الإسلام المسؤولية للفرد العالم والجاهل المتمكن من العلم.

بناء على ما سبق نلمس أن المسؤولية القانونية تظهر عند إخلال الإنسان بقاعدة قانونية ويختلف باختلاف القاعدة القانونية التي خولفت، ورغم تنوع أنواعها وأقسامها إلا أنها تبقى وليدة القانون فقد اعتبرت المسؤولية المدنية بنوعيها التي تقوم على أساس وركن واحد هو الخطأ أساسا موجها لتعويض الضحايا وكسند للإصلاح ومن ثم كان الخطأ مصدرا للقانون وأساسا للمسؤولية. وهذا ما يظهر في قوله عزوجل ۞ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ۞ سورة البقرة الآية 179

وتجدر الإشارة إلى أن المسؤولية قضية عرفت في إطارها القانوني العام، إلا أنها قضية ذات صلة وثيقة بالجانب الخلقي الفلسفي الذي لا يمكن إغفاله، وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن

معنى المسؤولية الأخلاقية؟ وهل المسؤولية القانونية كافية لضمان حياة هنيئة ومستقرة للبشر والمجتمع بصفة عامة؟ أم يحتاج المجتمع إلى وجود مسؤولية من طابع آخر هي المسؤولية الأخلاقية؟ وهل المسؤولية الأخلاقية قادرة على حل جل مشكلات الإنسان الراهنة وسد الفجوات الموجودة في النظام القانوني للمجتمع الراقي؟

هذا ما سنتعرف إليه فيما تبقى من كتابنا هذا، ومن أهم أسباب المشاكل والفتن والشرور في المجتمع إهمال المسؤولية الأخلاقية داخل المجتمع، وتقديس المسؤولية الاجتماعية والقانونية، وجوهر الحياة البشرية كلها هي المسؤولية الأخلاقية وهذا ما ركز عليه الإسلام بغية تحقيق الأخلاق الكونية في مقابل المسؤولية القانونية.

د/المسؤولية الأخلاقية أو الأدبية

المسؤولية الأخلاقية هي المسؤولية الناشئة عن إلزامية القانون الأخلاقي وعن كون الفاعل ذا إرادة حرة [14]. ومعنى ذلك أن الفاعل الذي تكون أفعاله ضرورية أي ناشئة عن أسباب طبيعية أو مسيرة بإرادة غيره لا يعد مسؤولا من الناحية الأخلاقية، ولهذا فإن المسؤولية درجات متفاوتة أعلاها مسؤولية الفاعل الواعي الذي تصدر الأفعال عن إرادته بحرية تامة، وأدناها مسؤولية الفاعل

الذي يسيطر الهوى على قلبه ويعمي بصيرته، ويمنعه من رؤية الحق " [15]. وهذا ما جاء في قوله تعالى ﴿ **وَكَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ**﴾ سورة القمر الآية 3

إنها شعور الشخص الداخلي بأن ما صدر عنه من أفعال هي أفعاله وأنه يتحمل عواقبها أمام محكمة ضميره، يقول تبارك وتعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** ﴾ سورة البقرة الآية 264.

وتقوم المسؤولية الأدبية أو الخلقية عند إخلال الإنسان بقاعدة خلقية، وهي تستوجب جزاء أدبيا بعيدا عن دائرة القانون [16]. ومن هنا فإن نطاق المسؤولية الأدبية تحدده الأخلاق التي ترسم للشخص السلوك الذي يجب أن يتخذه نحو غيره من الناس وفي الإسلام يحدده الإيمان بالله والطاعة له.

ومنه كان نطاق المسؤولية الأخلاقية (الأدبية) أوسع من نطاق المسؤولية الاجتماعية والقانونية، إنها حالة تمنح الفرد القدرة على تحمل تبعات أعماله وآثارها ومصدرها الضمير المتشكل من الإيمان بالله، ومن ثم كان أصل المسؤولية ليس القانون بل مبدأ أخلاقي،

فلا يسن قانون ولا يراد له أن يطبق دون إحساس الضمير بمبدأ المسؤولية كحافز ذاتي لدى الفرد.

إنها المسؤولية التي تترتب عن مخالفة قواعد الأخلاق والتمرد عن أوامر الله، فيسأل أمام الله وأمام ضميره، ولا يترتب عليها أي جزاء قانوني، كما لا يشترط لقيام هذه المسؤولية حدوث ضرر للغير، بل يكفي الإنسان أن ينوي ويتمنى شرا لغيره حتى تتحقق هذه المسؤولية.

والمسؤولية الأخلاقية مسؤولية عامة شاملة تشمل كافة نواحي الحياة، وهي مسؤولية نابعة من ضمير الإنسان. لأن الفعل الأخلاقي لا يستمد إلا من كياننا الداخلي، لهذا لا يكون هذا الفعل حدا إلا إذا اشتق من الإرادة الداخلية للإنسان "ومن بين الأمور التي يمكن حصرها في هذا العالم أو خارجه لا يوجد شيء يمكن عده خيرا على وجه الإطلاق ودون قيد اللهم إلا شيء واحد هو الإرادة الخيرة" [16].وهذا ما يظهر في قوله عزوجل ﴿ **قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ** ﴾ سورة هود الآية 77

إن هذه المسؤولية التي جعلها الإسلام أساسا لقيام الفعل الإنساني وجعلها الأصل في المحاسبة بين العبد وربه، نلمسها عند

فيلسوف الكونية الألماني كانط، وهذا ما جاء في القسم الأول من كتابه (تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق) إذ بين أن الإرادة الخيرة هي وحدها التي يمكن أن تعد خيرا في ذاته أو خيرا مطلقا غير مشروط فهي تستمد خيريتها من صميم نيتها ومنه كانت النية العنصر الجوهري للأخلاق، فالشعور بالالتزام يصدر عن إرادة حرة هي التي تدين نفسها بنفسها، وهي التي تقرر لنفسها بنفسها أداء الواجب

لذا فإن القانون الأخلاقي لا يعبر عن شيء كما وضح "كانط" سوى عن الاستقلال الذاتي للعقل العملي أي الحرية التي هي شرط ضروري لتحقق القانون الأخلاقي وفي هذا يقول كانط " لا يعبر القانون الأخلاقي إذن عن شيء آخر إلا على استقلالية العقل العملي الخالص أي الحرية" [17]. فحيث تنعدم الحرية تنعدم العلاقة الأخلاقية، وهذا ما تعبر عنه طبيعة الإرادة، ومنه كان القانون الأخلاقي منبثق من الإرادة نفسها، وليس شيئا مفروضا على الإرادة من خارجها.

إن فكرة "كانط" حول مفهوم الاستقلال الذاتي يعني عنده "القدرة والمسؤولية فإن تكون حرا معناه أن تكون شخصا ذا مسؤولية أخلاقية ذلك أن الإرادة الحرة والإرادة الخاضعة للقوانين الأخلاقية شيء واحد بالذات" [18].

فكوننا كائنات عاقلة نحن أحرار، ومنه فنحن الذين نصوغ القانون الأخلاقي بأنفسنا، لأنه كامن فينا بداخلنا ولسنا بحاجة للبحث عنه، فهو ينتمي إلى تركيبتنا العاقلة.

فالمسؤولية الأخلاقية حسب كانط لا تخضع لسلطة قانونية أو خارجية قهرية بل إلى سلطة أو قوة الإرادة التي هي كامنة بداخلنا وهي الضمير، ذلك الإحساس العميق بداخلنا الذي ينادي حتى ولو نسينا أو أخطأنا يلوم صاحبه إذا ارتكب خطأ، يعذبنا بداخلنا حتى ولو كان الإنسان شريرا، ولكن لديه علاقة مباشرة بحرية إرادتنا إنه الدستور الذي يقودنا ويحكم بداخلنا.

ومنه كانت المسؤولية ناتجة عن مخالفة القواعد الأخلاقية أي الواجب الأخلاقي، مما يخضع الفرد للمساءلة أمام ضميره متى خالف الفرد أوامر الإرادة الخيرة التي تقوده دوما لأن يكون فاضلا، إنها – المسؤولية الأخلاقية- تقوم متى أخل الإنسان بقاعدة خلقية مما يجعلها تستوجب جزاء أدبيا بعيدا عن دائرة العرف والقانون ومنه كان نطاق المسؤولية الأخلاقية الذي تحدده الأوامر واحترام القانون الأخلاقي ،والتي ترسم للشخص سبيل عيشه إنها وليدة الضمير، ومنه كان نطاق المسؤولية الأخلاقية أوسع من نطاق المسؤولية الاجتماعية والقانونية. لأن المسؤولية الاجتماعية هي تلك المسؤولية التي لا تتمركز حول الفرد، بل هي انعكاس لصوت

وضمير الجماعة، لأنها التزام المرء بقوانين المجتمع و نظمه وتقاليده وأعرافه، فهي مسؤولية تجعل الفرد مدان أمام سلطة عامة أي الرأي العام للجماعة أو المجتمع، أما المسؤولية القانونية بنوعيها هي تلك المسؤولية التي تقوم عند إخلال المرء بقاعدة قانونية، يحددها القانون مما يستوجب جزاء قانونيا ومنه كانت وليدة القانون أو تخضع لإرادة التعاقد بين الطرفين المسؤول والمتضرر، ولما كان الخطأ محررا للقانون وأساسا للمسؤولية وركنها الأساسي أصبحنا اليوم نتحدث عن مسؤولية دون خطأ مقصود قانونيا نتيجة تضاعف الأضرار وازديادها بفعل التطور التقنو علمي وسيطرة الآلة على أنشطة الإنسان.

كل هذا أدى إلى انقلاب المجتمع رأسا على عقب فكل شيء انقلب إلى تهديد، ولم يعد الإنسان مستسلما لفكرة القدر، بل أضحى يطالب بإصلاح الأضرار، وهذا ما أدى إلى ظهور أزمة المسؤولية "فالأزمة المعاصرة للمسؤولية هي أزمة القرار، وفي الوقت ذاته أزمة القيم وتضاربها [19]. ثم تليها أزمة القانون، ذلك أن المجتمعات المعاصرة مجتمعات كثرت فيها المرافعات القضائية وتضاعفت فيها الدعاوي والإجراءات القضائية، مما استوجب أن ترجع المسؤولية الأخلاقية أو الأدبية لتنظم حياة الفرد والمجتمع،

لأنها نموذج للتنظيم الاجتماعي وتقنية للجزاء وإصلاح الضرر فالمسؤولية الأخلاقية أو الفلسفية مؤسسة على الوعي بالواجبات.

لهذا فمحاولة إيجاد حل لأزمة المسؤولية يعتمد على ضرورة الإسناد الفلسفي الذي تم إغفاله، والذي ينص على ضرورة الشعور بالوعي بالمسؤولية، ودون تجاهل المسؤولية القانونية القائمة على الجزاء وإصلاح الضرر، ومنه كان الضامن الوحيد لقيام المجتمع الصالح على أسس ومبادئ قوية وسليمة هي المسؤولية الأخلاقية والتحامها مع المسؤولية القانونية والاجتماعية لضمان تنظيم الفعل الإنساني على أكمل وجه، ومن هنا نجد أنفسنا ملزمين بتجديد القيم، وتأسيس أخلاق المسؤولية أو الالتزام بالأخلاق الإسلامية لأنها بحق خير ممثل للمسؤولية الأخلاقية والآيات التي ذكرناها سابقا خير دليل على ذلك، ويمكن اختزال ذلك كله في قوله عزوجل ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ سورة الانعام الآية 162

وإن التزم الفرد بالمسؤولية الأخلاقية تحققت العدالة، لأن العدالة فضيلة أخلاقية قبل أن تكون فضيلة سياسية، وإذا قامت المسؤولية الأخلاقية لن نكون بحاجة إلى قانون أو حاكم أو سلطة فإن غابت أصبح وجود المسؤولية القانون حتمية لا مفر منها،

وذلك لإجبار الناس على الاستقامة، وهذا ما أقر به الإسلام لحفظ القيم داخل المجتمع.

والمسؤولية في الإسلام مرتبطة بالحرية، والحرية مرتبطة بمسلمات أخرى مثل المسؤولية فإن تحققت هذه المسلمات يمكننا بعد ذلك الحديث عن العدالة.

وشعار المسؤولية في الإسلام هو: أنا أحسن اليك لأن الله أمرني بذلك، والواجب الأخلاقي في الإسلام يقتضي دلالة أساسية هي أنني التزم بالواجب لأني أحب الله وامتثل لأوامره، بعيدا عن أية غاية أو مصلحة خاصة، أنا اتحمل مسؤوليتي إذن يجب أن أكون عادلا وانا مسلم عادل، وهذا يقتضي أن أتحمل مسؤوليتي.

2/ العدالة في التّصور الإسلامي

تتوج المسؤولية في التصور الإسلامي بالعدالة كفضيلة أخلاقية وسياسية وأعطى الإسلام قيمة كبيرة جدا للعدل، وأولى فقهاء وفلاسفة الإسلام اهتماما كبيرا للعدالة باعتبارها أساس الملك وأساس التطور والتقدم، وقدس الإسلام العدالة إلى درجة أن الله حرم الظلم على نفسه، ووصف ذاته عزوجل بالعدل، ولن نكون مبالغين إذا قلنا أن العدالة محور كل القيم ومركز كل الاخلاقيات في الإسلام، وطابق ابن تيمية بين الشرع والعدال مبينا في العديد من مؤلفاته بأن الشرع هو العدل والعدل هو الشرع، وتعتبر المسؤولية

مقدمة أولى للعدالة في التصور الإسلامي، لذا يجب أن ندرك بأن تصور المسؤولية في الإسلام تصور كوني وليس تصور قومي، فنحن نتحمل مسؤوليتنا اتجاه كل الناس مهما كان دينهم أو عقيدتهم ونكون عادلين مع كل الناس مهما كان جنسهم أو عرقهم، وهذا ما سنفصل فيه من خلال العناصر التالية :

أ/ تعريف العدالة

العدالة هي إحدى الفضائل الأربع التي سلم بها الفلاسفة منذ العصور القديمة خاصة في التصور اليوناني، وتتمثل هذه الفضائل في الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة، وهذا يعني أن العدالة فضيلة أخلاقية قبل أن تكون فضيلة سياسية، والمقصود من هذه الأخيرة في اللغة" الدرجة الرفيعة في حسن الخلق، وفضيلة الشيء مزيته أو وظيفته التي قصدت منه. يقال فضيلة السيف إحكام القطع، وفضيلة العقل إحكام الفكر" [20].

وعرف جميل صليبا العدالة في معجمه الفلسفي بقوله "العدالة عند الفلاسفة هي المبدأ المثالي أو الطبيعي، أو الوضعي الذي يحدد معنى الحق، ويوجب احترامه وتطبيقه، فإذا كانت العدالة متعلقة بالشيء المطابق للحق دلت على المساواة والاستقامة وإذا كانت متعلقة بالفاعل دلت على إحدى الفضائل

الأصلية وهي: الحكمة والشجاعة والعفّة والعدالة وليست العدالة جزءا من الفضيلة وإنما هي الفضيلة كلها"[21].

أما الفيلسوف الفرنسي لالاند فقد عرف العدالة قائلا " سمّة ما هو عدل وعادل، هذا اللفظ يستعمل بمعناه الحقيقي تماما للتعبير عن الإنصاف أو الكلام على الشرعية، فيقال مثلا: إنّ العدالة الدقيقة غالبا ما تكون ظالمة، وصفة من يكون عادلا، إذن العدالة هي إحدى الفضائل الأربع الكبرى المسلم بها في الفلسفة اليونانية "[22]. ومن هنا جعل لالاند العدالة مرادفة للإنصاف، والذي يتفق تماما مع جوهر العدالة، لأنّ المقصود من الإنصاف الإحساس التلقائي الصادق بما هو عدل أو جور، ويقضي بإعطاء كل ذي حق حقه.

ب/ العدالة عند الفقهاء المسلمين

اهتم الكثير من الفقهاء المسلمين وخاصة فقهاء المقاصد بالعدالة، كما اهتموا بالغاية والمقصد من إقامة هذه الفضيلة والمتمثل في جلب المصالح ودرء المفاسد عن النّاس في المعاش والمعاد حسب مراد الشرع.

- **تصور العدالة عند ابن تيمية**

إن من أكثر اللذين ذاع صيتهم في الكلام عن العدالة، ومن اللذين أفاضوا فيها الفقيه الإسلامي ابن تيمية، وتناول ابن تيمية الحديث عن العدالة من جوانب مختلفة نذكر منها:

-العدالة في النفس

عرّف "ابن تيمية" العدل بقوله " والعدل هو الاعتدال والاعتدال هو صلاح القلب، كما إنّ الظلم فساده، ولهذا يكون الإنسان في جميع الذنوب ظالما لنفسه، والظلم خلاف العدل والمذنب لم يعدل مع نفسه بل ظلمها، فصلاح القلب في عدله، وفساده في الظلم وإذا ظلم العبد فهو الظالم وهو المظلوم، كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه"[23].

انطلاقا من هذا يكون ابن تيمية قد ربط العدل بصلاح القلب، فإذا اجتنب الإنسان كل الذنوب والفواحش كان عادلا مع نفسه، وبخلاف ذلك كان ظالما لها، ومن عدالة النّفس كذلك عدم تزكيتها على الآخرين، والتفاخر بالطاعة والسخرية من العاصين قال عز وجل﴿ **فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**﴾ سورة النجم الآية 32، أي لا تزكوها وتمدحوها وتمنوا بأعمالكم[24].

وكل هذا أساسه ومنبعه صلاح الدين يقول ابن تيمية في ذلك " العدالة هي الصلاح في الدين والمروءة وفسروا المروءة باستعمال ما يجمله ويزينه، وتجنب ما يدنسه ويشينه" [25]. وتصبح هنا العدالة

مسألة دينية أخلاقية، والتحلي بها فضيلة وهي من مكارم الأخلاق وتعد واجب شرعي لا يستقيم الدين بدونها.

-العدالة مع الغير

عبر "ابن تيمية" عن العدالة بالنسبة للنفس وبالنسبة للغير قائلا " والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ليقوم النّاس بالقسط وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له ثمّ العدل على النّاس في حقوقهم ثمّ العدل على النّفس "[26]. فالعدالة لا تكون بالنسبة إلى النّفس وفقط، بل يجب أن تتعدى إلى المعاملات مع الغير، فيحق الحقوق لأصحابها ولا يظلم أحدا، كما بيّن ابن تيمية بأنّ العدالة هي أحد الأهداف الأساسية في بعث الرسل ونزول الكتب، لذا اعتبر كل ظالم مخالف لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا علم له بالعدل، وهذا ظاهر في قول ابن تيمية ". وكل من خالف ما جاء به الرسول لم يكن عنده علم بذلك ولا عدل، بل لا يكون عنده إلاّ جهل وظلم وظن، قال الله تعالى ﴿ **وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى** ﴾سورة النجم الآية 23، وذلك لأنّ ما أخبر به الرسول هو حق باطنا وظاهرا، فلا يمكن أن يتصور بأن يكون الحق في نقيضه وحينئذ فمن اعتقد نقيضه كان اعتقاده باطلا والاعتقاد الباطل لا يكون علما، وما أمر به الرسول فهو عدل لا ظلم فيه، فمن نهى عن العدل ومن أمر بضده فقد أمر بالظلم فإنّ ضد العدل الظلم"[27].

فنهج الرسول صلى الله عليه وسلم جاء مقرا بالعدالة في جميع نواحي الحياة ومع جميع الناس، لذا فلا يمكن أن يتصور الحق في غير ما جاء به، فما جاء به فهو الحق والعدل.

-العدالة في الحكم

ومن عدالة الإنسان مع نفسه ثم مع غيره إلى عدالة الحكم حتى لا يكون هناك جور وفساد، فتضيع الحقوق وتهدم الدولة، يقول الله عز وجل ﴿**وإذا حكمتم بين النّاس إن تحكموا بالعدل** ﴾سورة النساء الآية 58، وهذا أمر من الله بأن نحكم بين الناس بالعدل مهما كان مركزهم، ومهما كان دينهم وخطاب العدل هنا كوني، لأن الله استخدم لفظ الناس في الآية السابقة، ولم يستخدم لفظ المسلمين أو المؤمنين.

فأساس الحكم وشرطه هو عدم ظلم الرعية والعدل بينهم وقد جعل ابن تيمية فصلا في هذه الآية الكريمة فقال "فإنّ الحكم بين الناس يكون في الحدود والحقوق ويشترط فيهما المساواة بين الضعيف والقوي حتى في تطبيق العقاب على الظالم"[28].

ويشير ابن تيمية هنا إلى أن العدل في الحكم يتمثل في إعطاء كل ذي حق حقه وتطبيق العقوبات على قدم المساواة بين النّاس دونما تمييز، فلا يعتبر من العدل تطبيق العقوبة على الضعيف والوضيع والغريب، والتسامح وغض النظر عن القوي والقريب

والشريف، ومن هنا يعتبر ابن تيمية العدالة كلية وأصل عام في الدين، وذلك من خلال ربطه للعدل بعبادة الله عز وجل، وهي غاية الخلق كما اعتبر أنّ هدف بعث الرسل ونزول الكتب هو العدل.

ويأمر الإسلام بإحقاق الحقوق وتطبيق العقوبات دون عنصرية وعصبية بين الأفراد، وهذا كله يدرج في مسؤولية الحاكم لذا فإنّ ابن تيمية اشترط في تولي المنصب ركنان هما القوة والأمانة بحيث أن القوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل يقول " وينبغي أن يعرف الأصلح في كل منصب، فإنّ الولاية لها ركنان : القوة والأمانة...والقوة في الحكم بين النّاس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دلّ عليه الكتاب والسنّة و إلى القدرة على تنفيذ الأحكام"[29]، فالقوة دون العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنّة تميل إلى التسلط واستعمالها في غير ما وضعت لأجله فتؤدي إلى الظلم، وحتى يتم ضبط هذه القوة يجب أن يكون الحاكم عالما بالعدل . فالعدل الذي يطمح إلى كل هذه الأمور من التحلي بمكارم الأخلاق في النّفوس وإحقاق الحقوق، وإتباع أوامر الله واجتناب نواهيه، وتحقيق المصالح وغيرها من الفضائل وهو العدل الذي جاء به الإسلام والذي توزن به جميع أنواع العدل الأخرى وجميع مظاهره[30].

- **العدل أساس قيام الدولة**

يعتقد ابن تيمية بأن أمور الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر ممّا تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم يشترك فيها إثم فبالعدل يسود سلام النفوس والتراحم بين الناس، وبذلك تعيش الدول في سلام، وعكسه الظلم الذي يجعل الإنسان يعيش في خوف على دينه ونفسه وماله وعرضه، فالظلم آذان بالخراب.

يقول ابن تيمية " إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام"[31].

فالنّصر والتطور حليف الدولة العادلة بغض النظر عما تدين به، والخراب حليف الدولة الظالمة بغض النظر عن ديانتها، وذلك لأنّ العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة، فالنّفس فيها داعي الظلم لغيرها بالعلو عليه والحسد له والتعدي عليه في حقه وفيها داعي الظلم لنفسها بتناول الشهوات القبيحة [32].

فالشرع عند ابن تيمية هو ما انزل الله، ومن حكم بشرع الله كان عادلا، لكن العدل قد يتنوع بتنوع الشرائع والمناهج فيكون العدل في كل شرعة بحسبها، لذا كان العدل في متناول الكثير من المجتمعات

غير الإسلامية، وعاب العدل في بعض الدول الإسلامية، لأنها خالفت أمر الله، وبالعدل حققت هذه المجتمعات غير الإسلامية التطور الحضاري، ومعنى هذا أن العدالة مسلمة من مسلمات الحضارة في التصور الإسلامي سواء لدى الفقهاء أو فلاسفة الإسلام.

وبالعدل تقوم الدنيا وتستقيم النّفوس، وبالظلم يسود الخراب وتضيع الحقوق، يقول ابن تيمية "جماع الحسنات العدل، وجماع السيئات الظلم، وهذا أصل جامع عظيم"[33].

ومن خلال عرض بعض أفكار ابن تيمية يتضح أنه يعتبر العدالة فضيلة أخلاقية أساسا، وتكمن في تحلي الشخص بها مع نفسه ومع غيره، كما تنتقل هذه الفضيلة من الفرد المجتمع لتتحول في النهاية الى فضيلة سياسية، ويعتقد ابن تيمية أن مقاصد الشريعة الإسلامية كلها تنحصر في العدالة، كما أن العدالة ليست حكرا على المجتمع الإسلامي وحده، بل تتعدى الى كل المجتمعات والنصر والتطور الحضاري مرهون بتحقيق العدالة الأخلاقية والسياسية.

- **العدالة الإسلامية في فلسفة أبي حامد الغزالي**

يعتبر أبو حامد الغزالي من كبار الفقهاء ومتكلمة وفلاسفة الإسلام وأخذت العدالة حيزا من كتاباته، إذ اعتبرها مبدأ وخلق في النفس يضبط مجال المعاملات وهي أيضا مبدأ سياسي يحدد دور الحاكم والسلطة، وعرف الغزالي العدالة معتبرا إياها الترتيب

المستحب في الأخلاق وفي حقوق المعاملات، وفي نظام البلد، والعدل في المعاملة وسط بين رذيلتين، الغبن والتغابن والعدل في السياسة ترتيب أجزاء المدينة ترتيبا يماثل ترتيب أجزاء النفس[34]، أي أن العدالة تضبط جميع مجالات الحياة الفردية والحياة الاجتماعية والحياة السياسية، وانطلاقا من هذا يمكن تقسيم العدالة إلى الأقسام التالية :

أ- العدالة في النفس

يعرف الغزالي هذا النوع من العدالة بقوله "العدالة عبارة عن استقامة السيرة والدين، ويرجع حاصلها إلى هيئة راسخة في النّفس تحمل على ملازمة التّقوى والمروءة جميعا، حتى تحصل ثقة النفوس بصدقه "[35]. ومعنى هذا أن الغزالي يربط بين العدالة والاستقامة فالهدف من الدين هو الامتثال لأوامر الله والاستقامة على نهجه وهذه الاستقامة هي العدالة ذاتها وغياب العدالة ينفي الاستقامة.

لكن إثبات صفة العدالة على هذا النحو فقط يبقيها نسبية لأن العدالة تظهر وتتجلى على أرض الواقع، فهي أبعد بكثير من اقتصارها على الذات، إنها تتسع لتشمل كل الميادين الاجتماعية السياسية والقانونية، لذا يجب مراعاة التكامل بين اقسام العدالة التي سنذكرها فيما يلي.

ب- العدالة في المعاملات بين الناس

شمولية العدالة والحديث عنها في مجال المعاملات بين النّاس لا يدل إلا على مكانة هذه الفضيلة في حفظ حقوق العباد وواجباتهم في الدين والدنيا، وبين الغزالي أن الإسلام يأمر بالعدل والإحسان والعدل سبب النجاة، وهو يجري من التجارة مجرى رأس المال والإحسان سبب الفوز ونيل السعادة، وهو يجري من التجارة مجرى الربح، ولا يعد من العقلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله فكذا في معاملات الآخرة، فلا ينبغي للمتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم ويدع أبواب الإحسان مصداقا لقوله عزوجل ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ** ﴾. ويعني الإحسان فعل ما ينتفع به المعامل، وهو غير واجب عليه ولكنه تفضل منه، فإن الواجب يدخل في باب العدل وترك الظلم [36]، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية "يخبر الله تعالى أنّه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة ويندب إلى الاحسان"[37]. فمن العدالة الإحسان للغير والتفضل عليهم بكل ما يحقق النفع، وهذا راجع لجود ذاته، وهو ما يوجبه العدل ويستحسنه الشرع في جميع المعاملات دون استثناء.

ج-العدالة كمسؤولية أخلاقية بالنسبة للحاكم

ينتقل الكلام من مسؤولية الفرد تجاه نفسه واتجاه الآخرين في تحقيق مفهوم العدالة إلى مسؤولية الحاكم أمام رعيته، وحدد

الغزالي هذه العدالة بقوله " وأما ما يتعلق بمظالم النّاس فإنّه لا يتجاوز به عنك على كل حال يوم القيامة وخطره عظيم، ولا يسلم أحد من هذا الخطر من الملوك إلا ملك عمل بالعدل والإنصاف ليعلم كيف يطلب العدل والإنصاف يوم القيامة"[38].

إنّ المسؤولية التي تقع على كاهل الحاكم مسؤولية عظيمة لتعلقها بحقوق الرعية وشؤونهم في شتى الميادين، ومن باب أولى تعلقها بالآخرة والعقاب الذي يلحقه إذا جار في الحكم أو الحق ظلما بالعباد، وإن كانت هذه المسؤولية في ظاهرها مسؤولية سياسية إلا أنها تنطوي على مسؤولية أخلاقية، فهي ترجع إلى ضمير الحاكم وأخلاقه لتنبثق منه قيم الرحمة والرفق برعيته.

كما جعل الغزالي العدل مرادفا للإنصاف، وبه يكون حكم الحاكم، والعدل هو المبدأ الذي يجب أن يلتزم به الحاكم في تسييره لشؤون العباد والبلاد.

د- العدالة كفضيلة أخلاقية

يولي الغزالي اهتماما خاصا على هذا النوع من العدالة أهمية خاصة وينعتها الغزالي بقوله "العدالة عبارة عن وقوع هذه القوى الحكمة والشجاعة والعفّة والعدالة على الترتيب الواجب فيها تتم جميع الأمور، ولذلك قيل بالعدل قامت السماوات والأرض"[39]

ويعتقد أبو حامد الغزالي أنه لو تناول الناس الدنيا بالعدل لانقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء.

ويعتبر الإمام "الغزالي" العدالة أهم الفضائل واشتمالها على الفضائل الأخرى، فالعدالة ليست جزء من هذه الفضائل بل هي جملة الفضائل، كما أشار إلى سبب قيام السماوات والأرض وتقدم الأمم وهذا ما اتفق عليه جميع العلماء وما ذكرته النصوص القرآنية وورد في غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى.

3/ قيمة العدالة

لا نجد اختلافا واسعا بين ما تناوله الفلاسفة وما تبحث عنه المجتمعات وبين الطرح الفقهي الإسلامي للعدالة، فالعدالة في نظر فقهاء الإسلام هي أساس الحكم والملك، وليست خاصة بشريعة بعينها، وترتبط ارتباطا وثيقا بالأخلاق والمسؤولية ولم تهمل التصورات الإسلامية لا الأساس الأخلاقي ولا الأساس الاجتماعي أو القانوني، واذا كان تصور الأمم والجمعيات الحقوقية العالمية وهيئة الأمم للعدالة بأنها مجازات كل إنسان وفق ما عمل تطبيقا لمبدأ حفظ التناسب بين الحقوق والواجبات فإن تعبير الحديث القدسي كان ابلغ واشمل واعظم فعن عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربِه عز وجل أنه قال "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما

فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أُطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليلِ والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجرِ قلب واحد منكم ما نقص من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عِبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه " رواه مسلم . وهذا ما يظهر أيضا في قوله عزوجل ﴿**مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ**﴾ سورة غافر الآية 31 .

وتقوم فلسفة العدل في الإسلام على المساواة بين الناس في تطبيق القانون، لأن القانون إذا لم يطبق على الناس بنفس الدرجة تحول إلى ظلم، حتى وإن كان هذا القانون عادلا في محتواه، وهذا ما

يعرف اليوم بفوقية القانون واستقلالية القضاء فقد جاء عن عائشة رضي الله عنها " **أن قريشا أهمهم شأن المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه أسامة، فقال: أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فاختطب فقال: إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله: لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها** " متفق عليه.

انطلاقا من هذه الأحاديث والآيات القرآنية الكريمة وإذا تعمقنا في مفهوم العدل في التصور الإسلامي سنجده تصور عالمي كوني تسعى إليه كل المجتمعات والتشريعات والهيئات الحقوقية، ويعتبر الإسلام العدل أحد القيم المركزية إن لم تكن القيم المركزية المسيطرة على طبيعة المنظومة التشريعية الإسلامية، وتحقيق العدل هو أحد اهداف الرسالة الإسلامية، بل إن النصر والتفوق مرتبط بتحقيق العدالة على جميع المستويات يقول عز وجل في كتابه الكريم﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ**

عَزِيزٌ ﴾سورة الحديد الآية 25، مفاد هذه الآية أن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به الأرض والسموات، فإذا ظهر العدل كان شرع الله، فالعدل جماع الدين والحق والخير كله، وفي غياب العدل لا حديث عن الحضارة والتقدم والسعادة.

وتهدف المنظومة القانونية في الدين الإسلامي إلى تحقيق العدل.وقيمة العدل عظيمة جدا، وتتوغل داخل إطار المنظومة الاجتماعية بهدف الإصلاح بين الناس، بل الحقيقة أن الدين في جملته إنما أوتي به لأجل إقامة العدل، وبالتالي يستطيع الإنسان أن يوجد علاقة بين المنظومة العقدية والفقهية والفكرية وبين العدل، لذا يجب أن ندرك قيمة العدل في هذا كله، أي أن العدل المطلوب أولا هو العدل مع الذات والقريب بمعنى أن اصدار احكامنا على أنفسنا وعلى ذوي القربى هو المطلوب أولا، وفي غياب هذا لا يحق لنا أن نتكلم عن قيام العدل، وهذا ما جعل الكثير من الناس يزكي نفسه دوما، ويدين غيره ولو ظلما، يقول عز وجل **﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾**سورة النجم الآية 32. فأولى خطوات العدل هي إدانة النفس وعدم تزكيتها، والاهتمام بالأخطاء الذاتية أولى بكثير من تجريح الآخرين، والعدل أساس القِيَم كلها، ويرتبط

مستقبل الأمة الإسلامية ومستقبل كونيتها وعالميتها – وأي أمة – بقيمة العدل فيها فلا كونية إلا بالعدل.

الهوامش

1 - جميل صليبا: المعجم الفلسفي ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982، ص.369

2 - المنجد في اللغة والإعلام، ط3، المكتبة الشرقية، بيروت، 2000، ص .159

3- نصوص فلسفية: السنة الثالثة ثانوي، ص 98.

4-Poulfoulique: dictionnaire de la langue philosophique, presse universitaire de France, Paris, 1962, P637.

5 - جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج2، ص 369.

6-Cf-Rabrit: La faute en droit privé, thèse, Paris, 1946, p106

7-(C) Larrourmet: La responsabilité civile; Paris, 1976, P 7 .8.

8- بلحاج العربي: النظرية العامة للإلزام في القانون المدني الجزائري، ج2، ط6، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2014، ص .09

9- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج2، ص .329

10 - راجع المادة 2/2 والمادة 4/6 والمادة 381 ق.إ.ج.ج. راجع: د.بلحاج العربي: التنازل في القضايا المدنية والقضايا الجنائية، جريدة المساء 29 مارس و 05 أفريل .1988

11 - جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج2، ص .369

12 - المادة01 من قانون الإجراءات الجزائية الجزائري الصادر بالأمر 155/66 المؤرخ في 08 جوان .1966

13 - عمر سعد الله: مدخل في القانون الدولي لحقوق الإنسان، ط5، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009، ص .254

14 - مراد وهبة: المعجم الفلسفي، ط5، دار قباء الحديثة، القاهرة، 2007، ص .593

15 - جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج2، ص 380.

16-Cf- Rabut: La faute en droit privé, thèse, Paris, 1996, p106

17- إيمانويل كانط: تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ص .19

18 – المرجع نفسه، ص .104

19- بول ريكور: العدل، ج1، محمد البحري وآخرون، تنسيق فتحي التركي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس قرطاج، د ت، ص .55

20- شوقي ضيف، المعجم الوسيط، مادة العدالة، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004، ص.588

21- جميل صليبا، المعجم الفلسفي, مادة العدالة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د ط), 1982، ج2، ص58-59.
22- أندريه لالاند , الموسوعة الفلسفية ، مادة عدالة ، منشورات عويدات ، بيروت ، ط2 , 2001 ، مج1 ، ص718.
23- ابن تيمية، مجموع الفتاوى, وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، (د ط)، 2004، مج10، ص98.
24- ابن كثير، التفسير، ص500.
25- ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، دار علم الفوائد، مكة المكرمة ، ط1، 1429، ص178.
26- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مج 10، ص99.
27- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مج13، ص64.
28- ابن تيمية، السياسية الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ، ص83- 84 ،.195
29- المرجع نفسه، ص17-18.
30- محمد جبرون وآخرون ماالعدالة ؟ معالجات في السياق العربي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1 2014، ص67، انظر: مجيد خدوري، مفهوم العدل في الاسلام، دار الحصاد للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 1998، ص223-224.
31- ابن تيمية، الإستقامة، إدارة الثقافة والنشر في الجامعة، السعودية، ط2، 1997، ج2، ص246-247.
32- المرجع نفسه، ص247.
33- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مج1، ص67.
34- الغزالي، ميزان العمل، دار المعارف، مصر، ط1، 1964، ص272.
35- الغزالي، المستصفى من علم الأصول، دار الميمان، السعوية، (د ط)، (د ت)، ص222.
36- الغزالي، إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، لبنان، ط1، 2005، ص524.
37- ابن كثير، التفسير، ص1073.
38- الغزالي، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1988، ص14.
39- الغزالي، ميزان العمل، مرجع سابق، ص264

رابعا/ التربية في الإسلام وضرورة الانفتاح على الآخر

قال عزوجل

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَـٰل مُّبِين﴾

سورة الجمعة الآية 2

رابعا / التربية في الإسلام وضرورة الانفتاح على الآخر

التربية قيمة حضارية وهي أساس كل المنتجات الحضارية وأصل كل القيم الأخلاقية التي ذكرناها سابقا من عدالة واحسان وتفاعل مع الآخرين، وضبط السلوك هو مظهر حضاري وإنساني يعكس تطور الإنسان وانفصاله عن العبثية والتلقائية، لذا كانت التربية مطلب إنساني بامتياز، والتربية هي ضبط وتوجيه عملية التعليم، أو هي كما يقول علماء النفس تنمية الوظائف النفسية بالتمرين حتى تبلغ كمالها شيئا فشيئا، ومن شروط التربية الصحيحة أن تنمى شخصية الطفل من الناحية الجسمية والعقلية والخلقية حتى يصبح قادرا على مسايرة الطبيعة والحياة، ويعمل على إسعاد نفسه وإسعاد الناس.

وتعد التربية ظاهرة اجتماعية تخضع لما تخضع له الظواهر الأخرى في نموها وتطورها، وهي مسار يقوم على تطور الوظيفة أو عدة وظائف تطورا تدريجيا بالتدريب وعلى تجويدها وانتقادها أما التعليم فهو التدريس وهو مقابل للتعلم، ويشترط في التعليم توفير الشروط التي تسهل طلب العلم على الطالب داخل المدرسة أو خارجها، والتعليم أخص من التربية، لأن التربية تشمل نقل المعلومات إلى الطالب مع العناية بتبديل صفاته وتهذيب أخلاقه

والملاحظ أن فلاسفة التربية في كثير من الأحيان غلبوا التنظير على الواقع وهذا ما أفقد العمل التربوي قيمته.

وبينت العديد من الدراسات الاستشرافية أن المنهج التربوي الباديسي قدم الإسلام في صورته الصحيحة، لذا سأركز على التربية الإسلامية عند ابن باديس باعتباره على حسب روجي غارودي الاسم الأكثر فهما للإسلام ومجدد الفكر الإسلامي، بل إنه قدم التربية في الإسلام في صورتها الإنسانية الكونية، وتجاوز ثغرة التنظير إلى لتطبيق، وهذا ما أردنا الوقوف عليه من خلال عرض أبعاد التربية عند ابن باديس وبعدها العالمي. من خلال تناولنا للعناصر التالية:

1-الفكر التربوي الإسلامي

ننطلق من تعريف التربية حتى ندرك أهدافه وغاياتها النبيلة.

أ. تعريف التربية

التربية هي تبليغ الشيء إلى كماله، أو هي كما يقول علماء النفس تنمية الوظائف النفسية بالتمرين حتى تبلغ كمالها شيئا فشيئا يقال: ربيت الولد إذا قويت ملكاته ونميت قدراته وهذبت سلوكه حتى يصبح صالحا للحياة في بيئة معينة، وتقول تربّ الرجل إذا أحكمته التجارب وأنشأ نفسه بنفسه، ومن شروط التربية الصحيحة أن تنمي شخصية الطفل من الناحية الجسمية والعقلية

والخلقية حتى يصبح قادرا على مسايرة الطبيعة والحياة، ويعمل على إسعاد نفسه وإسعاد الناس[1]، وتعد التربية ظاهرة اجتماعية تخضع لما تخضع له الظواهر الأخرى في نموها وتطورها وهي مسار يقوم على تطوير الوظيفة أو عدة وظائف تطورا تدريجيا بالتدريب و النقد والتكوين[2].

ب-التعليم

التعليم هو التدريس وهو مقابل للتعلم نقول: علمته العلم فتعلم، ويشترط في التعليم توفير الشروط التي تسهل طلب العلم على الطالب داخل المدرسة أو خارجها. والتعليم أخص من التربية لأن التربية تشمل نقل المعلومات إلى الطالب مع العناية بتبديل صفاته وتهذيب أخلاقه، ويركز التعليم على نقل المعلومات بطرق مختلفة، ومفهوم التعليم يتضمن مفهوم الحاجة إلى المعلم على حين أن مفهوم التعلم لا يتضمن ذلك، لأن المتعلم يستطيع تحصيل العلم بنفسه، وربما كان استقلاله بطلب العلم أعمق تأثيرا في نفسه من أخذه عن معلم، وكل تعليم فهو إنما يكون عن معرفة متقدمة الوجود، وهي تنقل من جيل إلى جيل بواسطة المعلمين والكتب ووسائل التعليم وغيرها[3].

وبواسطة التعليم يحقق الفرد كفاءته ونموه الفردي، أو هو العملية المقصودة التي تؤدى بواسطة مؤسسات وجدت خصيصا لهذا الغرض، ويقوم أفراد اختيروا ودربوا للقيام بهذه العملية بهدف الحصول على المعرفة واكتساب المهارة، وتنمية قدرات وطاقات خاصة.[4]

2-علاقة التربية بالتعليم

العلاقة بين التربية والتعليم علاقة جدلية ضرورية وحتمية متكاملة الأهداف والمرامي والغايات، ولا يمكن الفصل بينهما إلا لضرورة البحث، بيد أن لكل من التربية والتعليم أهدافاً خاصة ومميزة تسهم في تحقيق أهداف معرفية، وأخرى تربوية ومعرفية خلال فترة دراسية واحدة وضمن مادة لغوية أو علمية أو اجتماعية. فعلى سبيل المثال فإن نصوص القراءة لوحدها والتي تتضمن مواقف أخلاقية لابد من دراستها والوقوف عند إفرازاتها وملامحها عبر الشرح الواعي والمستفيض بهدف الاستثمار اللغوي والفكري لنصوصها ومفرداتها، وهذه المزايا تنسحب وتنعكس تلقائياً على مواقف أخرى أخلاقية وتربوية سلوكية، يجب هنا أن نحسن اختيارها واستغلالها ودمجها تلقائياً ضمن المنهج الدراسي.

وبالسير وفق هذا التعامل التربوي مع مواد التدريس حققنا عدة أهداف تربوية وسلوكية وثقافية أهمها المعرفة والتربية والعلم والأخلاق، وفي سياق هذا البحث المعمق في منظومة العمل التربوي يمتلك الطلاب المعرفة ويتعلمون في الوقت نفسه كيف يكبحون جماح النفس والسيطرة على غرائزهم والارتقاء إلى مستويات أعلى متحصنين من عواصف الانحرافات الفكرية والثقافة السلبية ويأخذ هذا النسق التعليمي المبني على الوعي المجتمعي إلى تهيئة وتوفير الفرص لتحقيق التكامل المطلوب بين التربية والتعليم [5].

وهذا ما جسده الحسن البصري رحمه الله بقوله " كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث إلا يسيراحتى يُرى أثر العلم في صلاته وخشوعه وكلامه ". فالتطبيق العملي لما نعلم هو غاية العلم والتربية في الإسلام، وعظم الإسلام من شأن طلب العلم، ففي السنن قال رسول الله **"من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سّهل الله له به طريقاً إلى الجنّةِ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإنّ العالمَ ليستغفرُله من في السماواتٍ ومن في الأرض حتى الحيتانُ في الماءِ، وفضل العالم على العابدِ كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء "**. صحيح الترغيب

وقال صلى الله عليه وسلم" **فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة "** الحاكم وغيره وهو في صحيح الجامع، وفي رواية **(فضل العلم**

خير من فضل العبادة) صحيح الترغيب، وقال الحسن البصري (لأن أتعلم بابا من العلم فأعلمه مسلما، أحب إلي من أن تكون لي الدنيا كلها في سبيل الله "، وقال الزهري " ما عبد الله بشيء أفضل من العلم " البداية والنهاية لابن كثير (345/9)

ويمكننا القول أن مجمل هذه الرؤى والأفكار التي يجب أن تلازم هذا المسار التعليمي، لتفضي بالتأكيد إلى تحقيق مردود تربوي وتحصيل معرفي متميزين نوعيين، وعلى هذا النحو من التعامل الواعي مع البرامج والمناهج التعليمية والتربوية نفرز قدرات تعليمية وخبرات تربوية فاعلة تحقق المنطق الشمولي في تنشئة الطلاب تنشئة تربوية متكاملة، وتتجاوز حدود المعرفة والتربية، بل تعمق في مفاهيمها وأبجدياتها وإيديولوجية العملية التعليمية والتربوية بالإضافة إلى ما تطرقنا إليه من أهداف وتطلعات يأتي في المقدمة استثمارها تربوياً وأخلاقياً، والارتقاء بأسس وطرق وأساليب العمل التربوي والتعليمي يتكيف مع مضامينها وأهدافها تدريجيا.

وبالتربية ينشأ السلوك نشأة عقلية روحية متوازنة، فيغدو قادرا على التمييز بين الخير والشر وبين الحق والباطل، فيتبع الخير والحق، ويتجنب كل ما هو شر وباطل، وبذلك يسلك طريق الفضيلة

مستنيرا بالقدوة الصالحة، قدوة المربي الصالح النافع لبلده ولأمته والتربية في النهاية هي ضبط وتوجيه عملية التعليم.

واستمد ابن باديس فلسفته التربوية من الفكر الإسلامي بشكل عام، وقد عكست تجربته التربوية استيعابا دقيقا لوضعية الجزائر المحتلة، وقد انطلق العمل التربوي لتأمين الأرضية الخصبة للمواجهة المطلوبة التي أفرزتها الحقبة الاستعمارية، والمتمثلة في المؤامرة ضد الهوية الوطنية المكونة من الفرنسة والاندماج والتمييز العرقي، وأن التصدي لإحباط تلك المؤامرة يكون عبر وسيلة التربية والتعليم وغرس العقيدة في عقلية المجتمع، وجعل ابن باديس من التربية الدينية والخلقية وتحفيظ القرآن الوسائل البديلة لجمع شمل الجزائريين وتوحيد الصفوف.

والظاهر أن الفكر الباديسي كان مستمدا أيضا من الواقعية وعلى القاعدة الشعبية التي كان يعتمدها في حركته، وقد راهن على هذه الكتلة الاجتماعية العريضة التي هي في أمس الحاجة إلى التغيير والإصلاح لما تعاني منه من ضيق استعماري، ولم يخاطب الحركة الأفقية صاحبة الامتيازات إلا في الحالات النادرة.

وكانت مهمة التعليم والتربية عند ابن باديس مهمة آنية تثقيفية تهذيبية توعوية، ومهمة بعيدة عن السياسة ظاهريا، وهي متلازمة مع

المهمات الأخرى الثقافية والاجتماعية، وفق توسيع المقروئية بين الشباب، ونشر وسائل التعليم سوف تكون ثقافة جديدة رافضة للواقع الجزائري المرير، وبالمقابل تأسيس أطر فاعلية وظيفية ضد مدرسة التعريب الفرنسية، ومن ثم كان نداء ابن باديس في البصائر في ديسمبر 1936م،بعد مرحلة هامة في تحديد المفاهيم التربوية وبناء الأطر الناجعة لحركته العلمية، لذلك نادى ابن باديس بضرورة الرجوع إلى المنهج التربوي الذي سار عليه الرسول الكريم وصحابته في تعليم الدين الذي كون به رجالا قدموا للأمة الإسلامية أشياء عظيمة[6]. لذا يحرص ابن باديس على التعليم الديني القرآني السني المنفتح، وقد اعتبر ابن باديس المناهج المعتمدة في العالم الإسلامي جوفاء وتشوبها العيوب، لأنها لا تعتمد على المبادئ والأسس التربوية النبوية، التي من صفاتها أسلوب المعاملة بالقدوة الحسنة، والتوجيه وأسلوب المحاورة والمناقشة.

وبهذا كانت فلسفة التربية الإسلامية عند ابن باديس تهدف إلى تثقيف الذات، وصلاح المجتمع يكون بصلاح الفرد، وصلاح الفرد يكون بتطهيره مما تسرب إلى نفسه وروحه من ثقافة المحتل الغاضب، ويهدف ابن باديس إلى هدم التحصين القديم المبني على الاستراتيجية الفرنسية وتجديده، بما هو أصلح للأمة الجزائرية لتأمين قوة الصمود والتصدي ضد الآخر، ولن يكون ذلك إلا بقوة

التحصيل العلمي والديني والاجتماعي، وتكوين نخبا وطنية تفكر بالفكر الجزائري لا بالفكر الفرنسي، وقد أشار إلى ذلك بقوله "نعرف كثير من أبنائنا الذين تعلموا في غير أحضاننا ينكرون وربما عن غير سوء قصد تاريخنا مقوماتنا، ويودون لو خلعنا ذلك كله واندمجنا في غيرنا، وكنا نرد عليهم في كل مناسبة تبدو منهم مثل هذه البوادر السامة الخاطئة " [7]. ومن هنا رسم ابن باديس طريق العودة الى الذات الإسلامية.

وكانت سياسته التربوية تستهدف تأهيل أفراد المجتمع، وتنمية قدراتهم العقلية والاجتماعية والخلقية والثقافية، وحتى الاقتصادية والسياسية من أجل البحث عن حياة أفضل، وفق استرجاع المقومات والدفاع عن الشخصية الجزائرية الإسلامية بكل مقوماتها وبالمقابل يراهن ابن باديس على تحقيق المنظومة الجديدة التي سوف تؤول إليها مهمة تحقيق الأهداف السياسية التي يتولاها جيل قادر على المنافسة والتحدي وهو مفعم بالحصانة الكافية [8].

وعليه فإن اعداد جيل وتربيته على تحمل المسؤولية النابعة من إحساسه بالحرية يجعله يخدم أمته، فحرية الفرد وسيادة الجماعة تنشر الوعي السياسي، وبالتالي تخلق التوازن السياسي، فالتربية عند ابن باديس تكمل السياسة والعكس بالعكس، وفي هذا فكرة فلسفية مهمة جدا، وهي أن التربية كفيلة بصنع السياسة

وإبطال كل مشروع سياسي مضاد، ولا يمكن المرور إلى السياسة دون تهيئة القاعدة الشعبية وتوعيتها.

3/ الباديسية والتصور الإسلامي للتربية

التربية الإسلامية في تصور ابن باديس هي جهد إنساني هادف يوجه لرعاية الفرد والمجتمع، ويسعى لبناء الفكر وتثقيف العقل وتقويم الأخلاق وتقوية البدن من أجل تحقيق الغاية التي يتطلع إليها الإنسان في حياته الفردية والاجتماعية، وهي بلوغ الكمال الإنساني وبناء الشخصية المتكاملة التي يركز الاهتمام فيها على الجوانب العلمية والعملية والأخلاقية، هذا مضمون التصور الذي نجده في ثنايا أقوال ابن باديس عند تناوله موضوع التربية والتعليم.

وبين في هذا الصدد عند تحديد المهمة التي أنشأت من أجلها جمعية العلماء المسلمين أن القانون الأساسي للجمعية بني من الوجهة التربوية على تربية أبناء المسلمين وبناتهم تربية إسلامية بالمحافظة على دينهم ولغتهم وشخصيتهم، ومن الوجهة التعليمية على تثقيف أفكارهم بالعلم باللسانين : العربي والفرنسي أي إكسابهم الجوانب المعرفية النظرية ومن الوجهة العملية التطبيقية، تعليمهم الحرف والصنائع، أي إكسابهم القدرة على توظيف المعارف المكتسبة ، وتطبيق النظريات ، وتدريبهم على

المهارات اليدوية، ومن الوجهة المالية : تعويد الأمة على التبرع المنظم في المشاريع التي تعود عليها وعلى أبنائها بالنفع العام.

والتربية من جهة أخرى عند ابن باديس هي سعي متواصل إلى تحقيق ما نستطيع من كمال في حياتنا، أي أن العمل التربوي ينبغي أن يستهدف ترقية أفكارنا وإثراء خبراتنا وإذكاء وعينا، وتهذيب سلوكنا، وتقوية إرادتنا، ليتحقق في ذواتنا وفي مجتمعنا ما نتطلع إليه من قوة ورقي، ويؤكد ابن باديس على أن كل ما نأخذه من الشريعة الإسلامية المطهرة علما وعملا نأخذه لنبلغ به ما نستطيع من كمال في حياتنا الفردية والاجتماعية، والمثال الكامل لذلك هو حياة محمد صلى الله عليه وسلم وسيرته الطيبة، ومن هنا يظهر تفعيل الشريعة عند ابن باديس، وتحويلها إلى آلية حقيقية لتمكين منافع الناس.

وحتى يتحقق للإنسان الكمال الذي يتطلع إليه يجب أن يسمو العمل التربوي-في نظر ابن باديس – إلى درجة يصبح مضمونه خدمة الإنسانية ومساعدة الفرد على النمو في هذا الاتجاه، ويرى ابن باديس أن خدمة الإنسانية في جميع شعوبها، والحدب عليها في جميع أوطانها، واحترامها في جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها هو ما نقصده ونرمي إليه، ونعمل علة تربيتنا وتربية غيرنا. ويظهر هنا

البعد الإنساني الكوني لمفهوم التربية عند جمعية العلماء المسلمين، فالتربية ليست حكر قومي كما يعتقد البعض، بل هي امتداد إنساني كوني، إن القصد من التربية هو السعي إلى تحصيل الكمال الإنساني والذي يتوقف على قوة العلم وقوة الإرادة وقوة العمل على حد سواء.

ويذكر ابن باديس أن حياة الإنسان مبنية على الإرادة والفكر والعمل أي على الجوانب التي تشكل شخصية الإنسان حيث جاء في آثار ابن باديس أن "حياة الإنسان من بدايتها إلى نهايتها مبنية على هذه الأركان الثلاثة : الإرادة، الفكر والعمل، وهذه الثلاثة متوقفة على ثلاثة أخرى لابد منها، فالعمل متوقف على البدن والفكر متوقف على العقل والإرادة متوقفة على الخلق، فالتفكير الصحيح من العقل الصحيح، والإرادة القوية، من الخلق المتين، والعمل المفيد من البدن السليم .فلهذا كان الإنسان مأمور بالمحافظة على هذه الثلاثة : عقله وخلقه وبدنه، ودفع المضار عنها"، ومن هذا النص سنستخلص أن ابن باديس يرى أن التربية الحقة هي التي توجه العناية إلى العقل والوجدان والنفس والبدن والسلوك، وكل الجوانب التي تتألف منها شخصية الإنسان، ويبدو أن ابن باديس تحول هنا إلى مفكر وجودي جازما بأن إرادة الإنسان كفيلة بصنع مستقبله، متجاوزا فكرة الجبرية الساذجة التي سادت وتسود اليوم

بعض المذاهب الدينية. وهذا ما نبه إليه المستشرق الفرنسي روجي غارودي في كتابه الإسلام.

أ-التعليم ووظيفته

التعليم عند ابن باديس وعلماء الجمعية هو عمل العلماء الذي أوجبه الله عليهم، لهداية الناس وإرشادهم إلى النهج الذي رسمه الإسلام، ونشر العلم والمعرفة بينهم، وبث الوعي في نفوس أبنائهم وتوريثهم القيم والأفكار التي تصلح أحوالهم وترفع شأنهم، وتنهض بأمتهم، ومن المعلوم أن التعليم هو أساس النهضة والطريق إليها وقد ذكر ابن باديس أركان النهضة مبينا انحصارها في العروبة والإسلام والعلم والفضيلة، هذه أركان نهضتنا وأركان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي هي مبعث حياتنا ورمز نهضتنا.

ثم يشيد بالرسالة التي اضطلعت بها الجمعية –منذ نشأتها-في هذا المجال فيؤكد على أن هذه الجمعية مازالت منذ نشأتها تفقهنا في الدين وتعلمنا اللغة وتنيرنا بالعلم، وتحفظ علينا جنسيتنا وقوميتنا السامية، وتربطنا بوطنيتنا الإسلامية الصادقة.

إن التعليم في نظر ابن باديس يتجاوز الاقتصار على تلقين المعرفة وتعليم وسائل اكتسابها، إن تربية الإنسان تربية شاملة

يلقن فيها العلم وتربى قدراته وتنمى مواهبه، ويؤكد ابن باديس على ضرورة التعليم مبينا أن الأمم لا تنهض إلا على صوت علمائها، فالعالم هو الذي يمنح الأفكار لعقولنا ويزيل على الأبصار غشاوتها، ويبعث الهمم من مراقدها، ويدفع بالأمم إلى التقدم في جميع نواحي الحياة. فالتعليم إذن هو الحياة وهو التقدم، هذا ما آمن به ابن باديس وسعى إليه وعمل على تحقيقه طوال حياته، غير أن التعليم الذي يحقق هذه الغاية هو التعليم الذي ينطلق من تصحيح العقيدة وتقويم السلوك ويراعي أحوال الناس الحاضرة، ويبني مناهجه على أساس الربط بين العلوم الموروثة والحقائق الحضارية المعاصرة أو ما يعرف بالتقليد العقلاني والتفتح المشروط على الحضارات الأخرى وهذا ما نادى به الكثير من المفكرين المسلمين فيما بعد ومن بينهم زكي نجيب محمود وطه عبد الرحمان.

ويبدو من تحليل ابن باديس لوظيفة العلم والعلماء، ودور التعليم في بعث اليقظة الفكرية وإحياء مجد الأمة، وإنه مدرك تمام الإدراك للدور البالغ الذي يؤديه التعليم المنظم، والأثر الذي يحدثه في شخصية الفرد، وشخصية المجتمع سلبا أو إيجابا، لذلك رأى أن صلاح التعليم أساس الإصلاح، وبما أن العلماء هم الذين يوكل إليهم تعليم الناس و تثقيفهم و هدايتهم ،فإنهم لن يستطيعوا القيام بهذه الرسالة الإنسانية النبيلة المنوطة بهم، إلا إذا كانوا على

وعي تام بها ولم يكونوا من أهل التحجر والجمود في تفكيرهم وفي أعمالهم، وفي نظرتهم إلى الدين وارتباطه بالحياة، يقول ابن باديس " **لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم، فإن العلماء من الأمة بمثابة القلب إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، وصلاح المسلمين إنما هو بفقههم الإسلام وعملهم به و إنما يصل إليهم هذا على يد علمائهم، فإذا كان علمائهم أهل جمود في العلم، و ابتداع في العمل، فكذلك المسلمون يكونون، فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علمائهم، ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته**" [9]. خلاصة القول أن عصب الحياة في المجتمع هم العلماء وعصب الحضارة هو العلم والفكر.

ب-التربية حق للجميع

التربية مكسب حضاري اجتماعي، ولو لا قابلية الإنسان للتربية لكان كل جهد يبذل في هذا المجال يضيع سدى، ولا يحتاج هذا الأمر إلى بيان من الناحية الجسمية، إذ أن نمو الأجسام وتأثرها بالتربية واضح معروف، أما النواحي العقلية والنفسية والروحية والخلقية فتتضح بملاحظة استجابة الإنسان لما يقدم إليه منها وتأثره بها ومقارنة من حصل على تربية رفيعة وتعليم عالي المستوى بمن حرم

من ذلك، فالأول تتفتح مداركه وتصقل مواهبه، وينمو ذكاؤه ويعتدل مزاجه ، ويرتفع شأنه درجات عالية، بينما لا يرق الثاني إلى هذا المستوى الرفيع، بل إن حرية الإنسان مستمدة من قابليته للتربية، فالحرية مسلمة قبلية أساسها الواجب الأخلاقي، يقول عزوجل ﴿ **وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَوَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾سورة النحل الآية 78، وجعل الله لنا القابلية لنسلك طريق الخير أو طريق الشر يقول المولى تبارك وتعالى ﴿ **أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ. وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ. وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ** ﴾سورة البلد الآية 8

ولهذا فإن التربية في نظر ابن باديس من الحقوق الأساسية التي يجب أن تمنح لجميع المواطنين، وهي في الوقت ذاته واجب على المجتمع، لذلك كان اهتمامه موجه لتعليم جميع المواطنين صغارا وكبارا ذكورا وإناثا، لأنه لم يكن من أنصار التعليم الموجه لصفوة من الناس أو خاصتهم، وإنما كان من الداعين إلى نشر التعليم على أوسع نطاق لتمكين أكبر عدد من أبناء الوطن من تعلم لغتهم ودينهم وتاريخهم والعلوم التي تهيئهم للحياة التي تنتظرهم، وتعدهم ليكونوا جنود الوطن وحماته.

وأكد ابن باديس على أن التعليم يجب أن يعم أبنائنا وبناتنا ونسائنا ورجالنا على أساس ديننا وقوميتنا إلى أقصى ما يمكننا أن نصل إليه من العلم، وقد ورد في القانون الأساسي لجمعية العلماء ما مفاده أن الجمعية تدعو جميع الجزائريين في كل جهة من جهات القطر إلى تأسيس فروع لتربية أبنائهم وبناتهم، وأن يسعوا لذلك السعي المتواصل. فإنهم أي -المواطنين-لا بقاء لهم إلا بالإسلام ولا بقاء للإسلام إلا بالتربية والتعليم، ونشير هنا إلى البند الأول من قانون الجمعية الذي ينص على تربية أبناء المسلمين وبناتهم تربية إسلامية عربية تحفظ عليهم دينهم ولغتهم وشخصيتهم، وتهذب أخلاقهم وتثقف أفكارهم، ورأي ابن باديس في إقرار التربية للجميع مستمد من الإسلام الذي يدعوا إلى طلب العلم.

وبين ابن باديس في كتاب التفسير أن الخلق القويم لابد أن يكون نتيجة تطابق مع الظاهر، لذلك وجد من أجل ضمان الوصول إلى الأهداف التي أشرنا إليها فيما سبق فالعمل التربوي التعليمي هو روح كل ذلك، ولهذا ينبغي أن يتلاءم مع الوضع الخاص للمجتمع، أي ضرورة إصلاح التعليم مع إدخال تغييرات منهجية في بنية المؤسسات التربوية، من ناحية البرامج والأساتذة والمراكز لكي تستطيع التربية الإسلامية الحديثة التكيف مع وطن يئن تحت وطأة الاحتلال، ونصل إلى نهضة جديدة قابلة لمواجهة غرب متقدم

علينا في كل الميادين، لذلك وجه ابن باديس دعوة سنة 1937م إلى كافة المدرسيين العاملين في مدارس جمعية العلماء لعقد مؤتمر خاص بمناهج التربية والتعليم، وقد انعقد بالفعل في نادي الترقي بالعاصمة يومي 22 و 23 سبتمبر 1937م، وحسب ما جاء في الدعوة التي نشرتها البصائر حدد ابن باديس هدف المؤتمر بالتوصل إلى توحيد مناهج التعليم العربي الحر في الجزائر[10]. وناقش المؤتمر الموضوعات التالية:

توحيد التعليم وأسلوب التعليم والتربية مع خلاصة تجاربهم في التربية والتعليم والكتب (كتب من المشرق أو تأليف كتب جزائرية تتفق مع الروح الجزائرية أو استعمال الطرقتين معا) ورأيهم في تعليم البنت المسلمة ووسائل تحقيقه والتعليم في المساجد ووسائل تنظيمه وترقيته، وكأن ابن باديس يتكلم عن واقع اليوم وما آل إليه حالنا من تهميش للعلم والعلماء، فعصف بنا التخلف وأصبحت الهوة بيننا وبين الغرب فسيحة جدا من فرط اهتمامهم بالعلم والعلماء في حين تخلى مجتمعنا عن ذلك.

وكان ابن باديس قد وجه اقتراحات إلى لجنة إصلاح التعليم التي شكلها باي تونس سنة 1931م، بهدف تعديل مناهج التعليم في جامع الزيتونة والخروج من طابع التقليد الساذج إلى طابع التفكير الحيوي

وهو منهج لاحظه به ابن باديس عندما كان فيه طالبا للعلم والمعرفة، وهذا ما فعله محمد عبده بالنسبة للأزهر، بالإضافة إلى هذه الاقتراحات كان ابن باديس يلح دائما على ضرورة صلاح العلماء، لأن فساد هؤلاء أخطر بكثير من تخلف وسائل التدريس أو ضعف مناهج التربية، لذلك كان ينادي باستمرار بضرورة أن يحظى العالم والمعلم والمربي بالتزكية أي الصدق والصبر والاخلاص[11]. ومن هنا يتبين ألا تكوين ولا إعداد في نظر ابن باديس إلا بمنهج علمي.

وخلاصة القول يظهر أن ابن باديس يركز على توافق العلم مع العالم والتعليم، وانطلاقا من هذه المعادلة الصعبة. حاول أن يقدم نفسه نموذجا لهذا المنهج التربوي الإسلامي العالمي من خلال جهوده في التعليم والتوجيه التربوي، ومن خلال أيضا المساجد والصحافة وهما أداة العمل الهامة الذي كرس ابن باديس حياته من أجله ويظهر أن ابن باديس بجهوده التربوية الخاصة الخصبة المتواضعة قد شكل الممهد الإيديولوجي لثورة نوفمبر 1954م وانتصارها، وسواء سارت الجزائر على نهجه أولا فإنه يبقى شخصية جزائرية إسلامية جاهدت لزرع بذور المقاومة الوطنية. حيث يقول " من راح يحول بيننا وبين فكرتنا التي نؤمن بها ويؤمن بها المؤمنون الصادقون، فقد حاول عبثا قلب الحقائق ونحن لذلك لا نتزحزح

عن تلك الفكرة قيد شعرة، مهما طغى سبيل الكوارث على الأمة لما للشعب الجزائري من الصفات المرغوب فيها الكامنة كمون النار في كهرباء" [12].

يتبين لنا أن هدف عبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء كان تصحيح مفهوم التربية في حد ذاته، ومن خلاله تصحيح الكثير من التصورات الإسلامية الخاطئة والمنغلقة، وخلق منهج عقلاني واقعي لتغيير حال الأمة الجزائرية والاسلامية والخروج بها من دائرة الجهل والضلال والعصبية والعبودية الى دائرة الحرية والعقل والانفتاح.

4/التربية وملائمة روح العصر

لا يقوم منهج ابن باديس فقط على التمسك بالتراث القديم بحسناته وسيئاته بدعوى أنه أساس الأصالة، ولئن كان ابن باديس قد قام بالدعوة إلى ما كان عليه السلف الصالح؛ فإنه يقرر أن الثقافة الجديدة لا تنافي الإسلام الصحيح، ولا تتعارض مع مقومات الجنسية القومية كما يسميها، ومن هنا يخاطب المسلم الجزائري قائلا **" حافظ على حياتك، ولا حياة لك إلا بحياة قومك ووطنك ودينك ولغتك وجميل عاداتك، وإذا أردت الحياة لهذا كله فكن ابن وقتك، تسير مع العصر الذي أنت فيه بما يناسبه من أسباب الحياة وطرق المعاشرة والتعامل"**[13].

إن المنهج الإسلامي لابن باديس كان له أبعاد عدة، بعد إسلامي عربي يقوم على إعداد فرد متشبع بكل المبادئ الإسلامية، وبعد تربوي يحرك سلوك الفرد، ويبعده عن الزلل والانحراف، وذلك من أجل التطلع إلى المستقبل، كما المنهج الإسلامي الباديسي مشبع بروح العصر ومتمسك بالتراث وحب الوطن، وحدد ابن باديس مبادئ تهدف إلى تحقيق نهضة شاملة من خلال ربط التربية والتعليم بالقرآن والسنة وضرورة الاقتداء بالسلف الصالح وإحياء الفكر والتجديد، ومن مسلمات المنهج الباديسي ما يلي :

الإسلام هو دين الله الخالد الذي وضعه لهداية عباده، وأرسل به جميع رسله، وهو دين البشرية الذي لا تسعد إلا به، لأنه يدعو إلى الأخوة الإسلامية والقيم الإنسانية، ويساوي في الكرامة البشرية مصداقا لقوله عزوجل﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾ الإسراء الآية 70

وبين ابن باديس أن الإسلام يفرض على الناس العدل ويأمرهم به، ولا يميز بين الأجناس إلا بالتقوى، ويعمل على نشر الإحسان ويحرم الظلم ويمجد العقل، ويشرك الفقراء مع الأغنياء في الأموال ويحرم الاستعباد، ويجعل الحكم شورى والقرآن هو كتاب الإسلام والسنة القولية والفعلية الصحيحة هي تفسير وبيان للقرآن

وسلوك السلف الصالح والتابعين هو تطبيق صحيح لهدى الإسلام ومفهوم أئمة السلف الصالح أصدق المفهوم لحقائق الإسلام، ونصوص الكتاب والسنة، والبدعة كل ما أحدث على أنه عبادة وقربة وهو ليس بذلك، والمصلحة كل ما تقتضيه حاجة الناس في أمر دنياهم ونظام معيشتهم وضبط شؤونهم مما تقره أصول الشريعة، وأفضل الخلق هو محمد صلى الله عليه وسلم، واختاره الله لتبليغ الرسالة إلى كافة الناس وهو على أكمل الخلق وعاش مجاهدا، وأفضل المؤمنين هم الذين آمنوا واتقوا الله والتوحيد أساس الدين، والجاهلون والمغرورون أحق الناس بالرحمة، وعند المصلحة العامة من مصالح الأمة يجب تناسي كل خلاف يفرق الكلمة ويصدع الوحدة ويوجد للشر ثغرة ويتحتم التآزر والتكاتف حتى تنفرج الأزمة وتزول الشدة [14].

والملاحظ أن الفكر التربوي عند ابن باديس كان له بعد فلسفي وديني وكوني، وهذا ما بينه المستشرق الفرنسي جون جيلسبي بقوله **"كان مذهب العلماء أصلا مذهبا دينيا ولكن نداءاتها السياسية أفادت في إيقاظ المشاعر القومية في الجماهير الجزائرية، وفي سنة 1938م صرح "ابن باديس" أن الإسلام دين الله، ويجب بالأول أن يكون دين الإنسانية، لأنه يشرف العقل ويمجده ويدعو إلى أن تكون كل تصرفات الحياة القائمة على العقل في كل صوره،**

وهو في جوهره ديمقراطي ولا يسمح بالحكم المطلق على الإطلاق حتى لأكثر الناس عدلا" [15].

إن هذا الاعتراف من جون جيلسبي يدل على عمق فكر ابن باديس وعمق فهم جون جيلسبي لهذا الفكر، فابن باديس لا يستغني عن البعد الفلسفي العالمي في العملية التربوية، كما لا يستغني عن البعد الكوني لمنهجه التربوية. وبهذا يكون قد تجاوز انغلاق بعض الفقهاء الذين عطلوا العقل نهائيا، فقتلوا بذلك الإنسان، ويكون ابن باديس رائد في إعطاء التربية الإسلامية أبعادا فلسفية وفكرية إلى جانب الأبعاد الدينية والأخلاقية والعلمية.

ومن خلال هذا يرى ابن باديس أن الدين هو الذي يساهم في تكوين عقل الفرد، وعلى هذا النحو يحرر الإنسان، ويستنكر الاستعباد، ويكرس كل معاني الديمقراطية والعدالة.

ومما لا شك فيه أن ابن باديس التزم في مسيرته الإصلاحية بما دعا إليه، وكان يرى دوما أن خدمة الجزائر مرتبطة أساسا بخدمة العقيدة الإسلامية التي جاءت للبشرية جمعاء، ومن ثم لم تكن حركته الإصلاحية خدمة للجزائر فحسب، بل وللإنسانية جمعاء [16].

وقد جاء في الفصل الرابع من قانون الجمعية الأساسي أن القصد من هذه الجمعية هو محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر

والميسر والبطالة والفجور، وبالجملة فكل ما يفسد على الناس عقولهم أو يضع عليهم أموالهم فهو من الآفات، ومن هنا حاربت جمعية العلماء المسلمين الجهل والجمود والدجل والخرافة وكل أنواع الأباطيل، كما حاربت من جهة أخرى كل ما يقف في وجه التعلم والتعليم سواء باللغة العربية أو اللغات الأجنبية. وبعبارة أخرى فإن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هي:

جمعية إسلامية جزائرية في مدارها وأوضاعها، علمية ودينية في مبادئها، إنسانية في غاياتها وأفقها، وقد تأسست من أجل تحقيق هدف تتطلبه ظروف الجزائر وأوضاعها السياسية والثقافية والاجتماعية، وتتعدى هذا في نمطها التربوي الى اصلاح المنظومة التربوية الإسلامية لتجعل منها منظومة إنسانية، من خلال تعليم الدين بأبعاده الصحيحة وتحرير العقل، وتعليم اللغة العربية وبعث الثقافة الإسلامية في البلاد. [17].

ويهدف المشروع التربوي الباديسي الى إبطال جميع المحاولات التي قد تمس هاته المقومات، فقد سعت فرنسا منذ احتلالها الجزائر إلى محو جميع آثار الثقافة العربية الإسلامية، وطمس معالم الحضارة وتحطيم الكيان العلمي والثقافي للشخصية الجزائرية، هذا الأمر جعل جمعية العلماء المسلمين تعمل على

إصلاح النفوس، وصقلها من جديد، وهذا من خلال أهداف تربوية ممنهجة ومدروسة.

إن المتصفح لقانون الجمعية يدرك أنها أنشأت للوعظ والإرشاد وتهذيب الناس، ومحاربة الأمراض الاجتماعية، والابتعاد عن كل المسائل السياسية، والمتتبع لأعمال الجمعية ونشاطها منذ ميلادها حتى سنة 1956م يجد وبكل وضوح أن أهدافها كانت تربوية سياسية وفكرية بالدرجة الأولى، وإن كانت قد بدأت بتطهير المعتقد وتهذيب السلوك وتحسين الأخلاق[18]. ولقد لخصت جريدة (لسان العرب) أهداف الجمعية سنة 1947م في نقطتين اثنتين هما، الأول هو إحياء ما اندثر في تعاليم الإسلام، والثاني إحياء ما مات من مظاهر اللغة العربية.

وبين الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أن أهداف جمعية العلماء المسلمين تتمحور فيما يلي:

إن جمعية العلماء تعمل للإسلام بإصلاح عقائده، وتفهم حقائقه وإحياء آدابه، وتطالبك بتسليم مساجده وأوقافه إلى أهلها وتطالب باستقلال فضائله، وتسمي عدوانك على الإسلام ولسانه ومعابده وقضائه عدوانا بصريح اللفظ، وتطالب بحرية التعليم العربي، وتدافع عن الذاتية الجزائرية، التي هي عبارة عن العروبة

والإسلام مجتمعين في وطن واحد، وتعمل على إحياء اللغة العربية وآدابها في موطن عربي، وتعمل على توحيد المسلمين في الدين والدنيا، كما تعمل لتمكين أخوة الإسلام العامة بين المسلمين كلهم، وتذكر المسلمين الذين يبلغهم صوتها بحقائق دينهم، وسير أعلامهم وأمجاد تاريخهم، وتعمل على تقوية رابطة العروبة بين العربي والعربي وبين الإنسان والإنسان، لأن ذلك طريق لخدمة اللغة والأدب.

لقد كان ابن باديس ورفاقه أعضاء جمعية العلماء من الحصانة بمكان، حيث أبدوا أشياء وأضمروا أخرى، مكتفين في تصريحاتهم الرسمية بإعلان الدعوة إلى الإصلاح الديني والتعليمي حذرًا، وأكد ابن باديس أن الجمعية يجب ألا تكون إلا جمعية هداية وإرشاد، لترقية الشعب وهدايته وتخليصه من الجهل والسقوط الأخلاقي إلى أَوْج العلم ومكارم الأخلاق، وبين ابن باديس أن المسلمين هم السواد الأعظم في وطنهم، فإذا تثقفوا بالعلم، وتحلوا بالآداب وأُشْرِبُوا حبّ العمل، وانبعثت فيهم روحا للنشاط، كان منهم كل خير لهذا الوطن وسكانه على العموم حاكمهم ومحكومهم [19].

ويختصر لنا الشيخ محمد البشير الإبراهيمي مهمة الجمعية مؤكدا على أن المهمة التي تقوم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بأدائها، وهي السير بهذه الأمة إلى الحياة عن طريق العلم والدين، وهي أقوم الطرق وأمثلها وأوفقها لهذه الأمة.

والحقيقة أن جمعية العلماء المسلمين، أدركت بوضوح أن العلة في بقاء الاستعمار جاثمًا على صدر الأمة دهرًا طويلاً، تكمن فيما يسمى بالقابلية للاستعمار والاستكانة له، والتي مردها إلى ما طرأ على الشعب من انحراف في عقيدته وفكره، وأن العلاج الصحيح يتمثل في إزالة تلك العلة من أساسها، أو كما قيل أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم، وذلك مصداقًا لقول الحق تبارك وتعالى﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ سورة الرعد الآية 11.

يمكن القول بعد هذا أن ابن باديس تجاوز طابع النقل غير المتأمل في منهجه الإصلاحي، واعتمد أيضا على العقل والعلم لإحلال الوعي في الفرد، ونادى بالعودة إلى الذات لرفع الغبن عن المسلمين.

فشعار التربية في الإسلام هو أن العمل بالعلم من أعظم أسباب حفظه وثباته، وترك العمل به إضاعة له يقول يقول ابن باديس " **هذه أركان نهضتنا وأركان جمعية العلماء المسلمين التي هي مبعث حياتنا، ورمز نهضتنا، فما زالت هذه الجمعية منذ كانت تفقهنا في الدين وتعلمنا اللغة العربية وتنيرنا بالعلم، وتحلينا بالأخلاق الإسلامية العالية، وتحفظ علينا جنسيتنا وقوميتنا السامية وتربطنا بوطنيتنا الإسلامية الصادقة**"[20].

لقد سعت الجمعية من خلال أهدافها إلى إحياء الثقافة العربية وبعثها، وذلك عن طريق توجيه الشباب، وتكريس كل مبادئ الإسلام والدعوة إلى التعليم، دون تجاهل التفتح على اللغات الأخرى وثقافة باقي الشعوب، ونشر العلم باعتباره معرفة شاملة وأساسا فكريا تقوم عليه نهضة الأمم، وهذا من أجل تكوين رجال علم يكونون دعاة للتغيير، ويقفون أمام كل السياسات التي تحارب مقومات الهوية الإسلامية، لأنه لا بقاء لشعب إلا ببقاء مقوماته.

وركز ابن باديس في نشر رؤيته التربوية الإسلامية المؤسسات التربوية التقليدية من مساجد وزوايا وكتاتيب، وأخرى عصرية كتأسيسه للإعلام من خلال تأسيسه للصحافة، كما أنشأت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مدارس خاصة بها، وكانت مستقلة عن الإدارة الفرنسية[21].

وبين محمد عابد الجيلالي أهمية التعليم العربي فقال "الغرض من التعليم العربي هو أن يكون في الجزائر وسطا مثقفا لسانا وفكرا وروحا بالثقافة الإسلامية العربية، وما دمنا لا نحس أثر هذه الثقافة بيننا فليس لنا أن ندعي بأن لنا تعليما عربيا صحيحا، لكن اليوم الذي نربى فيه أقلاما ما تجول بمختلف الميادين، ألسنة تتفجر عن ينابيع الحكمة شبابا يعتز بلقبه عامة قادرا على التمييز بين الإسلام والخرافة، وبين الحق والباطل"[22].

وتجدر الاشارة الى أن جمعية العلماء المسلمين كانت مصرة على ضرورة تعليم المرأة باعتبارها مدرسة، وكان في مدارس جمعية العلماء نحو ثلاثة عشر ألف بنت يشاركن الأولاد في السنوات الثلاث الأولى من المرحلة الابتدائية، ثم ينفردن ببرنامج محكم في التكوين. حتى أن ابن باديس حاور أحد جنرالات فرنسا فقال له سأسجنك فرد عليه ابن باديس لقد تركت في الجزائريين الآلاف من النساء يحملن فكري، وكلهن ابن باديس فأدركت القيادة الفرنسية أن الرجل أصبح أمة، ومنهجه التربوي انتشر فلا فائدة من سجنه. وكان موت ابن باديس أعظم بالنسبة للفرنسيين من كسب الحرب ضد المانيا على حد تعبير أحد جنرالاتها.

ولم تكن طريقة التدريس العصرية بعيدة عن المنهج التربوي الإسلامي عند ابن باديس وعلماء الجمعية، لا على مستوى التنظير فحسب، بل حتى على المستوى التطبيق، وما يؤكد ذلك قول ابن باديس في وصيته للمسلم " **كن عصريا في فكرك وفي عملك وفي تجارتك وفي صناعتك وفي فلاحتك وفي تمدنك ورقيك**"[23].

ويجب أن ندرك أن التركيز على التعليم الإسلامي لا يدعو إلى اهمال التفتح على باقي الحضارات واللغات، ولا تعني مقاومة ابن باديس لفرنسا رفضه للفرنسية كلغة صانعة للحضارة يقول ابن باديس في العدد 47 من مجلة الشهاب الصادرة في 16 أوت 1926"

إن الذي يحمل علم المدنية العصرية اليوم هو أوروبا، فضروري لكل أمة تريد أن تستثمر تلك العقول الناضجة وتكتنه دخائل الأحوال الجارية، أن تكون عالمة بلغات أوروبا، وكل أمة جهلت جميع اللغات الغربية، فإنها تبقى في عزلة عن هذا العالم، مطروحة في صحراء الجهل والنسيان من الأمم المتقدمة التي تتقدم في هذه الحياة بسرعة لم يسبق لها مثيل".

وهذا ما يدعو اليه الإسلام وهو ما أخرجه الترمذي في جامعه من طريق إبراهيم بن الفضل المدني عن المقبري عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم -قال **" الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها "** رواه ابن ماجه في سننه.

والمقصود أن المسلم العاقل لا يجعل بينه وبين المعرفة حجاباً ويبحث عنها أينما وجدها فهو أحق بها؛ لأنه وفق هذا أفضل وأقرب من الدنو إلى الكمال.

وإذا تأملنا في المواد الدراسية التي اختارتها الجمعية فسوف ندرك الالمام الفكري والعلمي لهذه المواد، وهذا ما يؤكده من جديد ابن باديس بقوله **" احذركل متعلم يزهدك في علم من العلوم، فإن العلوم كلها أثمرتها العقول لخدمة الإنسانية ودعا إليها القرآن بالآيات الصريحة، وخدم علماء الإسلام بالتحسين والاستنباط ما**

عُرف منها في عهد مدنيتهم الشرقية والغربية حتى اعترف بأستاذيتهم علماء أوروبا اليوم"[24]. وهذا قول فصيح وصريح بضرورة الانفتاح على الحضارات الاخرى والاقتباس منها، ومن هنا يبدو مخالفة ابن باديس للكثير من المذاهب الدينية الجامدة التي ركزت على العلوم النقلية وانغلقت على نفسها انغلاقا سلبيا.

يمكن القول بأن التربية الإسلامية في فلسفة عبد الحميد بن باديس انطلقت من تصحيح التصورات والمفاهيم لدى الفرد وتصحيح أبعاد الإسلام من خلال تربية الفرد على الانفتاح على الحضارات الأخرى، وتعلم اللغات وطلب العلوم، لأن هذا واجب من واجبات المسلم، وهو جزء من رسالته التي كلفه الله بها، وتحقيق النهضة الإسلامية والانتقال بالإسلام الى العالمية يقتضي التجديد في الفكر والتفتح على ابداعات الغير، وفهم آليات تطورهم ونهضتهم وبذلك تكون التربية فيض متجدد من المعاني ينطلق من التنظير وينتهي إلى التطبيق، وفي غياب هذا لا يمكن الحديث عن أي نهضة إسلامية.

ويعتقد ابن باديس بأن التربية من مقدسات الإسلام، ومتى أهملناها أو لم نعطها حقها لا يمكن الحديث لا عن الاخلاق ولا عن السياسة والاستقلالية، ولا يمكن الحديث في غيابها عن التوحيد والسعادة والفقه، فالتربية هي محور كل هذا، وضعف التربية

وانغلاق المناهج التربوية في عديد الدول الإسلامية خلق مجموعة من المتناقضات، فالإسلام دين عالمي والمسلم اصبح ذو سلوك قومي الإسلام منفتح على الآخر، والمسلم اليوم اصبح منغلقا، الدين الإسلامي ثورة حقيقية في جميع المجالات، والمسلم في عصرنا هذا منتكس ومستسلم دون إرادة ودون طموح.

أراد ابن باديس من خلال منهجه التربوي أن يخلق مسلما فعالا ليحدث التوافق بين الإسلام والمسلم، واعتقد أن احياء وإعادة بعث المنهج التربوي الباديسي سيقود هذا الدين إلى العالمية المنشودة وهو ما صرح به علنا المفكر الفرنسي روجي غارودي في كتابه الإسلام وهو ما قال به المستشرق الفرنسي جوان جيلسبي والمفكر الكندي أندري درليك.

الهوامش

1- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1، ص 266.

2-أندريه لالاند: الموسوعة الفلسفية، ج1، عويدات للنشر والطباعة، لبنان، 2008، ص 322.

3- جميل صليبا: المعجم الفلسفي،ج1،مادة التربية، ص 307.

4- نايف القيسي: المعجم التربوي وعلم النفس، دار أسامة ،عمان،الأردن،ط1، 2006،ص 170.

5- زروخي الدراجي : الأبعاد الفلسفية للنظرية التربية عند جمعية العلماء المسلمين ، دار صبحي للطباعة والنشر ، غرداية ، 2015، ص 95

6- شريف رضا: تجربة التجديد والإصلاح في فكربن باديس ومحمد عبدو، ط1 مؤسسة كنوز الحكمة، الأبيار، الجزائر، 2011، ص.59

7- نقلا عن :أحمد مربوش: مجلة لتربية و الابستمولوجيا ،ص40.

8- أحمد مريوش: مجلة التربية و الابستمولوجيا، ص140.

9- نقلا عن: الزبير بن رحال: الإمام بن باديس ، ص 58

10- محمد طهاري :حركة الإصلاح في الفكر الإسلامي المعاصر،ط1،شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ص.25،24

11- نقلا عن: محمد الطهاري : حركة الإصلاح في الفكر الإسلامي المعاصر، ص25-.26

12- نقلا عن : محمد طهاري : الحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر، ص 26.

13- آثار عبد الحميد بن باديس ، ج3، ص43

14- أحمد مريوش : أضواء على إسهامات العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس في النهضة الجزائرية الحديثة، مجلة التربية و الابستمولوجيا ،العدد الأول،2011، ص136-.137

15- جون جيلسبي : ثورة الجزائر، ترجمة عبد الرحمن صدقي ،الدار المصرية للتأليف والترجمة، ص63-.64

16- أحمد مريوش: التربية و الابستمولوجيا ،ص136-137.

17- تركي رابح: التعليم القومي والشخصية الوطنية، د ت ،ص.203،202

18- عبد الكريم بوصفاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى(1931-1954م)، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، د ط،الجزائر، 1983،ص.109

19- بوفلجة غياب: التربية والتكوين بالجرائر،ص37

20- نقلا عن: عبد القادر فضل ،محمد صالح رمضان: إمام الجزائر عبدالحميد بن باديس ،د.ط، شركة دار الأمة للطباعة والترجمة للنشر والتوزيع، 1998، ص.212،211

21- بوفلجة غياب: التربية والتكوين بالجرائر، ص98.

22- نقلا عن :سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين ، د.ط ، دار المعرفة ، باب الواد الجزائر، 2008، ص .110،109

23-عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية الجزائر، ط 1، 1982،ص: .76

24- آثار الإمام عبدالحميد بن باديس، ج 4،ص: 42.

خامسا/ أولوية الإسلام بالحضارة

" الإسلام يفضي إلى تساوي جميع البشر دون أي استفتاء الأمر الذي جعل الإسلام دعوة لتحرير الشعوب المقهورة سياسيا واقتصاديا ودينيا "

روجي غارودي

خامسا / أولوية الإسلام بالحضارة

استطاع الدين الإسلامي في ظرف قياسي أن يعيد هيكلة الانسان العربي، وينقله من عالم الفرقة والصراع والتناحر إلى عالم الأخوة والوحدة والمحبة، ومن عالم الجاهلية والجمود إلى عالم العلم والمعرفة، فكان المجتمع الإسلامي سباقا لتأسيس منظومة علمية وفكرية لم تعرفها الحضارات السابقة، وهذا ما سنبينه في الجزء من الكتاب.

1/ تعريف الحضارة

يصعب علينا حصر وتحديد مفهوم الحضارة، فهو من بين المصطلحات اللغوية المستعصية، فقد شهد هذا المصطلح العديد من التطورات والتغيرات على مر العصور، وظهرت آراء مختلفة لعلماء لغويين وفلاسفة حول ما يعنيه هذا المصطلح، ويعود سبب الاختلاف في ضبط مفهوم الحضارة إلى المنطلقات الفكرية التي يؤمن بها كل مفكر، ويعود الاختلاف أيضا إلى تعدد مجالات استعمال مصطلح الحضارة، وورد لفظ الحضارة في العديد من المعاجم الحديثة، وقد اتفق البعض منها على أنها تعني الإقامة في الحضر وجاء في لسان العرب " حضر: الحضور: نقيض المغيب والغيبة والحضر: خلاف البدو، والحاضر: خلاف البادي، الحاضر:

المقيم بالبادية، والحضر والحاضرة: خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار، والحاضرة والحاضر: الحي العظيم أو القوم "[1].

ويرتبط مفهوم الحضارة عند العرب بمكان عيش الإنسان فمن يقطن في المدينة يطلق عليه لفظ المتحضر، الذي هو خلاف الذي يقطن بالقرية أو البادية، فهذا ننفي عليه صفة التحضر، لا لشيء سوى لمكان إقامته، فالمكان هو الذي حدد ذلك بعيدا عن كل المظاهر الحضارية، كبعده عن التمدن وطلب الفنون، وجاء في معجم الوجيز أن " الحضارة: الإقامة في الحضر وهي ضد البداوة ومظاهر الرقي العلمي والفني والاجتماعي في الحضر "[2]. وسنفصل في مفهوم الحضارة وتقنياتها في الإسلام من خلال عرضنا لبعض للآراء وبعض الأعلام، وسنقتصر على آراء ابن خلدون ومالك بن نبي وروجي غارودي.

أ-مفهوم الحضارة عند ابن خلدون:

إذا كان لفظ الحضارة حديث فمعناه قديم، فلا حضارة بدون إنسان، ولا إنسان بدون تاريخ حضاري، وعرفت الشعوب والأمم الأفعال الحضارية منذ القدم وعبرت عن مظاهرها من خلال أشكال وألوان مادية ومعنوية متعددة، تختلف من مجتمع لآخر ومن عصر

لآخر، ومن بين الفلاسفة الذين نلمح في مؤلفاتهم مصطلح الحضارة المؤرخ والفيلسوف العربي عبدالرحمان بن خلدون، خاصة في كتابه المقدمة، إذ يرد هذا اللفظ في بعض كتاباته صريحا ومرات أخرى نجده يعبر عنه بالعمران، وقد يعود سبب تنوع مدلولاتها نتيجة لمصطلحات عصره، ويعرف ابن خلدون الحضارة قائلا " والحضارة إنما هي تفتت في الترف وأحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله، فلكل واحد منها صنائع في استجادته والتأنق فيه تختص به ويتلو بعضها بعض "[3]، بمعنى أن الفعل الحضاري يهذب سلوك الانسان ويزيده رقيا وجمالا وأناقة.

ويعرفها أيضا بقوله "الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفاه وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوت غير منحصر "[4]، فالحضارة في التصور الخلدوني هي تلك المرحلة التي يصل فيها الإنسان إلى قمة الترف وترقية سبل الحياة ، فبدل أن يكتفي الإنسان بما هو ضروري كما كان سائدا في مرحلة البداوة، يبحث عن الكماليات والزائد عن الضروريات، بلوغا لمرحلة يصل فيها العمران البشري إلى درجة كبيرة من التأنق والتصنع في شتى مجالات ونواحي الحياة من مأكل ومشرب وملبس ومبنى و عمران وفرش و ثقافة وغيرها.

ب-الحضارة عند مالك بن نبي*

تعتبر فكرة مالك بن نبي في الحضارة امتدادا وتطويرا لفكرة ابن خلدون حتى أن البعض يعتبره ممثلا للخلدونية الجديدة، دون أن تنفي عليه فكرة الإبداع والتجديد التي اتسم بها مشروعه الحضاري وهو من بين أبرز المفكرين والباحثين الذين اهتموا بمشكلة الحضارة، وأخذوا على عاتقهم مسؤولية تغيير المجتمع وتطويره وتصحيح مفاهيمه والمساهمة في تحقيق نهضته، وهذا ما تؤكده أغلب مؤلفاته وملتقياته ومحاضراته التي يظهر فيها جليا أن مسألة الحضارة قد أخذت حصة الأسد فيها، حتى أصبح موسوما بفيلسوف الحضارة.

وحاول مالك بن نبي تقديم صورة للحضارة في نسقها الإسلامي واعتبر" الحضارة في مجموعها ناتجا للإنسان والتراب والوقت "[5]. فالإنسان باعتباره ذاتا واعية بإمكانها أن تحرك عجلة التاريخ، ما إن توفر فيها الوعي، ومتى وجدت الوقت المناسب في وجود التراب -الذي يعكس الإمكانيات المادية-باعتباره أحد أطراف المعادلة الحضارية ولا يمكن بأي حال من الأحوال إقصاء أحد أطراف هذه المعادلة.

كما أضاف لتلك العناصر الفكرة الدينية لما لها أهمية كبيرة باعتبارها الحاضنة أو الوسط الذي تتفاعل فيه مكونات الحضارة

يقول مالك بن نبي " إن الوسيلة إلى الحضارة متوافرة، مادامت هناك فكرة دينية تؤلف بين العوامل الثلاثة: الإنسان والتراب والوقت، التركيب منها كتلة تسمى في التاريخ حضارة "[6].

وقدم جميل صليبا لمصطلح الحضارة تعريفين مختلفين أحدهما موضوعي وآخر ذاتي، المعنى الموضوع هو «إطلاق لفظ الحضارة على جملة من مظاهر التقدم الأدبي والفني، والعلمي والتقني التي تنتقل من جيل لآخر في مجتمع واحد أو مجتمعات متشابهة "[7]. والمعنى الذاتي فيطلق على مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني المقابلة لمرحلة الهمجية والتوحش، أو تطلق على الصورة الغائية التي نستند إليها في الحكم على صفات كل فرد أو جماعة، فإذا كان الفرد متصفا بالخصال الحميدة المطابقة لتلك الصورة الغائية حكمنا عليه أنه متحضر، وعلى هذا فان الحضارة تنتهي الى سلوك ايجابي سواء كان هذا اسلوك فردي أو اجتماعي.

2/ مكانة الإنسان المسلم في المعادلة الحضارية

الحضارة هدف سامي بالنسبة للعلم والفلسفة على حد سواء ويعتبر مالك بن نبي رائد في الفكر الإسلامي في شقه الحضاري في عصرنا هذا، لأن كل كتاباته سخرت للنهضة الحضارية، ولا تزال

المجتمعات الإسلامية تستهلك فكره حتى أيامنا هذه، رغم ما وجه إليه من انتقادات.

وتجمع الحضارة في التصور الإسلامي في نظر بن نبي بين الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد في كل طور من أطوار حياته المساعدة الضرورية " أو هي إنتاج فكرة حية تطبع على مجتمع الدفعة التي تجعله يدخل التاريخ "[8] فالحضارة عند مالك هي الحاضنة للتقدم، والمحيط المناسب لإشاعة ثقافة العلم، حين تعطي الفكرة المبررات الدافعة لليد والعقل للاستفادة من الوقت. وتقتضي الأفعال الحضارية الفعالية في العمل، فالإنسان الفعال الذي يترجم أفكار إلى ابتكارات حية هو القادر على صناعة الحضارة.

والحضارة تبدأ حين يتعلق الإنسان بمبدأ معنوي حيث ينتهي اللااستقرار والقلق والاضطراب، أي لا بد من الاستقرار في الحضر فإذا أمن الإنسان تطلعت نفسه نحو الإبداع والإنشاء، وقد امتن الله -سبحانه وتعالى- على قريش بنعمة الأمن، وهي القبيلة التي سيخرج منها الجيل الذي التف حول الرسول صلى الله عليه وسلم وقاد الدولة الإسلامية قال عز وجل ﴿**فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف**﴾ سورة قريش الآيتين 4.3 وقد صنعت الحضارة الإسلامية في أول عهدها ثقافة مشتركة جعلت

العرب يقبلون على العلم بنهم عظيم، حتى إننا نجد الواحد منهم يطلب العلم ويجالس العلماء عشرات السنين ويفتخر المسلمون بأنهم وهبوا حياته للعلم، ويعتبرون العلم كأفضل أنواع العبادة التي يتقربون بها الى الله، لذا كان للعلم مكانة مقدسة في الإسلام، ودلت العديد من الآيات القرآنية على ذلك.

إن مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي يقوم على اعتقاده الراسخ بأن "مشكلة كل مجتمع هي في جوهرها مشكلة حضارية، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها [9]. وانطلاقا من هذا الاعتقاد الراسخ بأهمية الحضارة وضرورة "فقه" حركتها منذ انطلاقتها الأولى إلى أفولها يحاول ابن نبي إعطاء تعريف واسع للحضارة، يتحدد عنده في ضرورة "توفر مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقسم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور، وعلى هذا فكل ما يوفره المجتمع لأبنائه من وسائل تثقيفية وضمانات أمنية، وحقوق ضرورية تمثل جميعها أشكالا مختلفة للمساعدة التي يريد ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه.

فالغاية من الحضارة هي اتاحة الفرصة لعقول الافراد وابدانهم في الابداع والتحرر من كل العراقيل، ويتبين من خلال هذا أن مفهوم الحضارة عند ابن نبي شديد الارتباط بحركة المجتمع وفاعلية أبنائه؛ سواء في صعوده في مدارج الرقي والازدهار أو في انحطاطه وتخلفه يقول مالك بن نبي " الجماعة هي التي تغير دائما خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغيير "[10]. وبالتالي لا بد من فهم عميق و"فقه حضاري" نافذ لكل من يريد دراسة المجتمعات دراسة واعية وشاملة؛ لأن حركة المجتمعات الحضارية ظاهرة تخضع كغيرها من الظواهر الإنسانية "لسنن"و"قوانين" اجتماعية وتاريخية وانثربولوجية ونفسية ثابتة، لا بد من الإحاطة بها وإدراك كنهها لكل من يريد أن ينهض بالمجتمع من التخلف إلى التقدم.

وهذا ما أكده مالك بن نبي بقوله "إن أول ما يجب علينا أن نفكر فيه حينما نريد أن نبني حضارة أن نفكر في عناصرها تفكير الكيماوي في عناصر الماء إذا ما أراد تكوينه؛ فهو يحلل الماء تحليلا علميا، ويجد أنه يتكون من عنصرين الهيدروجين والأكسجين)، ثم بعد ذلك يدرس القانون الذي يتركب به هذان العنصران ليعطينا الماء، وهذا بناء ليس بتكديس"[11].

وهذا يدل على مدى حساسية مفهوم الحضارة وحساسية البناء الحضاري في نظر مالك بن نبي، وهي حساسية اكتسبها من فهمه العميق للدين الإسلامي، وتشبيه الرسول صلى الله عليه وسلم للمجتمع الإسلامي في تفاعلاته وتداعياته بالجسد الواحد وتكامله خير دليل على ذلك.

استخلص مالك بن نبي من قراءاته المتعددة للتاريخ البشري وفلسفته، ولتاريخ الحضارة الإسلامية على وجه الخصوص أن مسيرة الأمم والجماعات تخضع لنظام دوري، قلما تنجو أي أمة من الأمم من جريانه، وهذا في نظره هو الذي يجعل الأمة في فترة من فترات تاريخها الحضاري تسجل مآثر عظيمة ومفاخر كريمة، تبقى خالدة في سجل تاريخها وتاريخ البشرية من حولها، كما تسجل عليها في فترات أخرى انتكاسات وهزائم حضارية وعمرانية وعسكرية، وغير ذلك من الحالات المرضية التي تهوي بالأمة إلى التخلف والانحطاط في آخر طور من أطوار دورتها الحضارية.

وهكذا تلعب الشعوب دورها وكل واحد منها يبعث ليكون حلقته في سلسلة الحضارات، حينما تدق ساعة البعث، معلنة قيام حضارة جديدة، ومؤذنة بزوال أخرى، ويرى مالك بن نبي أن هذا القانون طبيعي جدا؛ لأنه يخضع لنفس النواميس التي تخضع لها باقي مخلوقات الله في هذا الكون فاليوم يبدأ بالشروق والزوال، ثم

يتبعهما الغروب الذي يسدل الظلام على الكون يقول مالك بن نبي " إذا نظرنا إلى الأشياء من الوجهة الكونية؛ فإننا نرى الحضارة تسير كما تسير الشمس؛ فكأنها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب، ثم متحولة إلى أفق شعب آخر " [12].

وفي هذه النقطة بالذات تظهر مغالطة فكرية عند مالك بن نبي إذ كان عليه أن يفكر في مجتمع طموحه عال بحيث يضع نهاية للتاريخ، هذه النهاية لا شك أنها تتأسس على معادلة حضارية تجمع بين المدنية والأخلاق والتكنولوجيا والعلم والفكر والعدالة، لكن مالك بن نبي فصل في الأمر بوجوب زوال الحضارة واندثارها على عكس ما يدعو إليه الإسلام إذ قاد المجتمعات إلى التفكير في تأسيس دولة الحق التي تضع نهاية للتاريخ وهذا الفكر أكثر إيجابية يقول عز وجل ﴿ **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ سورة آل عمران الآية 139 . فالمولى عز وجل يدعونا هنا إلى وضع نهاية للتاريخ وفق اتباع منظومة الإيمان بكل ما تقتضيه الكلمة من معنى، ومتى التزمنا بالإيمان وعملنا صادقين وامتلكنا أدوات الحضارة واحكمنا قبضتنا على كل المنتجات الحضارية حينها سنحكم التاريخ ونضع نهاية له.

ويعتقد مالك بن نبي أن التاريخ يفرق هداياه أو يوزع أمجاده لأي كان، كما تنشر الشمس أشعتها حينما تؤذن بالشروق، لكن التاريخ

كتلة من السنن والنواميس الإلهية التي تتحكم في توجيه الأفراد والمجتمعات على السواء، وهذه السنن والقوانين لا بد من استيعابها والسير على هداها لمن أراد النهوض والريادة الحضارية أما الذين لا يحترمونها ولا يستوعبون عبرها ومراميها فإن حركتهم تكون حركة مضطربة لا يحكمها ضابط ولا هدف، مما يؤدي إلى مخالفة السنن الهادية إلى البناء والدخول في فترة الخمول. " ومن عادة التاريخ ألا يلتفت للأمم التي تغط في نومها، وإنما يتركها لأحلامها التي تطير بها حينا، وتزعجها حينا آخر؛ تطربها إذ ترى في نومها أبطالها الخالدين وقد أدوا رسالتهم، وتزعجها حينما تدخل صاغرة في سلطة جبار عنيد"[13].

ولكي يخرج المسلمون مما هم عليه الآن من سبات حضاري وخذلان لا بد أن يستوعبوا سنن الله الثابتة في الكون التي يخضع لها الأفراد قبل الجماعات، لأنهم بهذا الاستيعاب فقط يمكن لهم أن يحجزوا مكانهم في حركة التاريخ، وفي حال بقاء حركة المسلمين كما هي عليه الآن حركة عشوائية تحكمها الصدف، وتوجهها الأهواء الفردية والنزوات الشخصية سنبقى بعيدين عن الإسلام الحي والفعال "فإذا ما حددنا مكاننا من دورة التاريخ، سهل علينا أن نعرف عوامل النهضة أو السقوط في حياتنا، ولعل أعظم زيفنا وتنكبنا عن طريق التاريخ أننا نجهل النقطة التي منها نبدأ تاريخنا، ولعل أكبر

أخطاء القادة أنهم يسقطون من حسابهم هذه الملاحظة الاجتماعية ومن هنا تبدأ الكارثة ويخرج قطارنا عن طريقه؛ حيث يسير خبط عشواء"[14] .

ويرى مالك بن نبي في هذا الصدد أن كل الحضارات الإنسانية خضعت لنفس هذا القانون الدوري المتحكم الذي تخضع له الحضارة الإسلامية. وفهم سنن الكون والطموح والسعي الى التغيير هو طريقنا الى تأسيس حضارة إسلامية يقول عز وجل ﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ سورة الرعد الآية11 .

نحن نؤمن بأن الله سبحانه هو مدبر الأمور، وهو مصرف العباد كما يشاء ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، وهو سبحانه قد شرح لعباده الأسباب التي تقربهم منه، وتسبب رحمته وإحسانه إليهم، ونهاهم عن الأسباب التي تسبب غضبه عليهم وبعدهم منه وحلول العقوبات بهم، وهم مع ذلك لا يخرجون عن قدره؛ بفعل الأسباب التي شرعها لهم، والتي نهاهم عنها، ومن بين الأمور التي شرعها المولى عزوجل هي وجوب استغلال كل طاقتنا وارادتنا في تحقيق اهدافنا، والتوكل على الله هو اصرافنا لكل طاقتنا البدنية والعقلية في تحقيق غاياتنا والتي من بينها و أهمها الحضارة. ولم يكن عطاء الله في الحياة الدنيا حكرا على عباده المؤمنين بل كان لكل الناس المؤمن منهم وغير المؤمن وهنا تكمن عالمية

الخطاب القرآني يقول عز وجل في كتابه الكريم ﴿ **كُلا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا** ﴾ سورة الإسراء الآية 20

ويجب علينا أن لا نتجاهل تجاهل فكرة هامة اغفلها مالك بن نبي في معادلته الحضارية وهي نظرية المؤامرة، فالغرب لن يدع المسلمين وشأنهم لأن نهضتهم ستكون وبالا عليه، وما يحدث في الدول العربية من فتن وتدخل الغرب في هذا الشأن إلا دلالة على ذلك، ومن أراد أن يفهم الأمر جيدا عليه بقراءة كتاب بروتوكولات حكماء صهيون ليدرك حجم المؤامرة، وعلية أن يقرأ التاريخ ليفقه حقد الغرب علينا حقد بينه الله عز وجل في غير ما آية من كتابه الكريم، لذا وجب فهم مخططات الغرب السياسية والفكرية منها والتي تحاول ان تبقي على المسلمين وتحجر عليهم في دائرة التخلف .

ويخضع الفعل الحضاري لتأثير مجموعة من العوامل هي:

.تأثير عالم الأشخاص.

.تأثير عالم الأفكار.

.تأثير عالم الأشياء.

إن تفاعل الثلاثية والمتمثلة في الأشخاص والأفكار والأشياء هو المسير الفعلي لعجلة التاريخ عند مالك بن نبي يقول " لكن هذه العوالم الثلاثة لا تعمل متفرقة، بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج إيديولوجية من عالم الأفكار يتم تنفيذها

بوسائل من عالم الأشياء من أجل غاية يحددها عالم الأشخاص فالعمل التاريخي بالضرورة من صنع الأشخاص والأفكار والأشياء جميعا "[15].

وينفي مالك بن نبي أن تكون فكرة هيجل عن الأفكار هي المحرك الحقيقي والوحيد للتاريخ، كما ينفي نظرية ماركس المادية كأصل للحركة التاريخية، لكن مالك بن نبي يعتبر فكرة هيجل ناقصة وليست خاطئة تماما، كما أن فكرة ماركس هي الأخرى مبتورة وليست ملغاة، لذا لابد من الدمج بينهما حتى نصل إلى حقيقة الحركة التاريخية، وهذا عين ما ذهب إليه كانط في المعرفة حين رفض أن تكون معارفنا من أصل مادي تجريبي فقط أو من أصل عقلي لا غير، وإنما حصيلة تفاعل الاثنين حتى وإن كانت الغلبة والأولوية للعقل يقول مالك بن نبي " والواقع أن هناك نقطة مشتركة بيننا وبين المصطلحات الماركسية، فلقد قررنا فيما يتعلق بمفهوم كلمة ثقافة أن النظرية الماركسية ليست مخطئة، ولكنها ناقصة بالنسبة إلينا، لأنها بهذه الصورة لا تسمح لنا أن نحقق بناء نموذج الثقافة الخاصة بنا على هذا التعريف " [16].

ما ينقص النظرية الماركسية هو الأفكار التي تكلّم عنها هيجل في وجود علاقات اجتماعية، وبهذا الجمع يتحرّك ويفسر التاريخ

ومن هنا يصوغ مالك بن نبي مفهوم الحضارة صياغة رياضية على طريقة العقلانيين الرياضيين وفق المعادلة التالية:

. الحضارة = إنسان + تراب + وقت

والملاحظ هنا أن مفهوم الحضارة يحتوي على الإنسان باعتباره عقل مفكر بالإضافة إلى التراب الذي يمثل عالم الماديات وتفاعل الاثنين يكون في إطار الزمن، فالإنسان مطالب بتحقيق معادلة الحضارة في أقل وقت ممكن.

إن المعادلة الحضارية لا تعطي ثمارها إلا بمفاعل أو مركب يدمج هذه العناصر ويعطيها غاية، وهذا المفاعل هو الدين أو ما سماه مالك بن نبي الفكرة الدينية أو العنصر الأخلاقي، وسواء كان هذا الدين سماوياً حقاً كالإسلام أو عقيدة ومبدأ يبلغ عند أصحابه مبلغ الدين، وحسب تعريفه فإن الصين أقلعت باتجاه الحضارة، وقبلها اليابان والاتحاد السوفييتي (سابقاً)، والحضارة لا تتشكل بتكديس منتجات الآخرين، وإنما بتفعيل العناصر الثلاث: الإنسان، التراب الوقت، وإذا بدأنا بالإنسان فإن المسلم تخصيصاً، وحتى يدخل في دورة حضارية جديدة لا بد أن يدرك أهمية شبكة العلاقات الاجتماعية، ويتعلم كيف يكون لبنة في (البنيان المرصوص) مصداقا عزوجل﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ سورة الصف الآية 4.

وإذا كان تدين المسلم تدين فردي لإنقاذ نفسه في الآخرة، ولم يوظف هذا التدين للبناء الاجتماعي، فلا معنى لهذا التدين كما أسلفنا الذكر سابقا، فالتدين الفعال يعكس انفتاح المسلم على الآخرين ومشاركتهم همومهم والدخول معهم في تبادلات تفاعلية فقد ورد في الصحيح من حديث أبي هريرة .رضي الله عنه .عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال" **والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه** ". هذا يعني أن الله يأمرنا بتقديس أخلاق التعاون والمشاركة فمن مشى في حاجة أخيه فهو في عبادة.

لذا فإن تأملنا للمعادلة الرياضية التي تعكس الحضارة عند مالك بن نبي سنتساءل: هل حدد مالك بن نبي هوية الانسان أو ملته؟ لم يحدد مالك بن نبي ذلك وأضاف إلى هذه المعادلة وسيط تفاعل هو الدين أو بالأحرى الايدولوجيا، فهذه الأخيرة هي الطاقة التي تدفع الانسان إلى الإبداع وإثبات الوجود، ونتساءل من جديد هل هناك إيديولوجيا معينة تحرك الإنسان؟ يجيب مالك بن نبي عن ذلك بالنفي، فالمهم عنده أن يكون الانسان حامل لإيديولوجيا أيا كانت يقول مالك بن نبي " فلقد شكلت الفكرة المسيحية (أنا) الأوربي أو ذاته ، كما صاغت منظر أوروبا الذي نشهده في منتصف هذا القرن العشرين "[17]. لكن من المفروض أن يكون الإنسان المسلم هو المقصود بالحضارة، لأنه أولى بها من غيره

فإن كانت الحضارة منشد كل المجتمعات، لأنها مطلب دنيوي فإنها في الإسلام مطلب دنيوي وديني يقول عز وجل في سورة العصر ﴿**وَالْعَصْرِ، إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾. والعمل الصالح هنا هو كل عمل يسهل على الناس حياتهم، وعلى هذا تكون منتجات الحضارة من الأعمال الصالحة التي أمر بها الله عباده.

والإسلام هو الدين الوحيد الذي اقترنت فيه القيم الأخلاقية بطاعة لله، لكن الديانات الأخرى تجاهلت منظومة القيم أو على الأقل جزء من منظومة القيم عل حد تعبير الفيلسوف برنارد شو، وهذا ما دفع بفلاسفة الغرب الى تأسيس فلسفات أخلاقية كفلسفة الواجب وفلسفة الغيرية وفلسفة الاعتراف وغيرها، لأن دياناتهم تفتقد إلى مثل هكذا أخلاق، فكان عليهم بناء الانسان وبعدها التوجه إلى الحضارة على عكس الدين الإسلامي الذي احتوى على كل هذه الاخلاقيات وقدسها، فكان على الفلسفة الإسلامية تفعيل الدين والمضي الى الحضارة مباشرة.

ومن هنا يكون مالك بن نبي قد همش الانسان بإعطائه الحرية في اختيار الايديولوجيا التي يريد فهناك العديد من الايديولوجيات المادية التي قضت على حقيقة الانسان، ونظرت إليه نظرة مادية كباقي الأشياء، هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن مالك بن نبي على

هذا النحو يصدر حكما عاما على عدم فعالية الإنسان المسلم ونحن نعلم أن التعميم في الظواهر الإنسانية لا يجدي نفعا، كما أن الإنسان المسلم اثبت فعاليته في المجتمعات الغربية.

وهذا ما يدفعنا إلى إعادة النظر في الكثير من أفكار مالك بن نبي، فالمسلم يحتاج إلى سياسة راشدة ليكون فعالا، وهذا ما تفطن إليه الانثريولوجي الفرنسي كلود لفي ستروس الذي بين أنه لا يوجد إنسان متقدم و آخر متخلف وإنما توجد سياسة متقدمة وأخرى متخلفة، ففعالية الإنسان مستمدة من دينه، ومن قوة النظام السياسي، والمفكر الفرنسي روجي غارودي في مشروعه الحضاري- والذي اعتقده شخصيا المشروع المكمل والبديل الحقيقي لفكر مالك بن نبي - أخذ في الحسبان قوة السياسة أو ما سماه بأسياد المال و السلطة كعنصر أساسي يجب أن يضاف إلى معادلة مالك بن نبي، فالإنسان لا يأخذ مكانته الحقة ولا تبعث فعاليته ما لم يخضع أسياد المال والسلطة للفكر والثقافة وهي الأزمة الحقيقية التي يعاني منها المجتمع الإسلامي اليوم[18].

إنني وفق هذا أرى أن الانسان لا يأخذ مكانته اللائقة في المعادلة الحضارية إلا بتفجير معادلة مالك بن نبي لتصبح على الشكل التالي:

منتوج حضاري = إنسان مسلم + تراب + وقت + خضوع أسياد السلطة والمال للمثقف.

وهذا ما يظهر في قوله عز وجل ﴿**لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ سورة البقرة الآية 177، وفي هذه الآية نص صريح على ضرورة إنفاق المال في الخير فهذا يعكس تعلق الانسان بربه، ومن هنا يعطي الإسلام للمال دوره في بناء الحضارة من خلال تنميته وانفاقه فيما يخدم مصالح العباد والبلاد.

ويظهر في حديث مالك بن نبي عن الحضارة تركيزه على شبكة العلاقات الاجتماعية كمخرج من الأزمة ودفع حركة الفرد والمجتمع على حد سواء نحو النهضة الحضارية، لكننا اليوم أمام معطيات جديدة، لم يعهدها مالك بن نبي، وهذه المعطيات تتمثل في تطور وسائل الإعلام والاتصال والتي فتت شبكة العلاقات الاجتماعية خاصة منها العالم الافتراضي الذي أصبح وهم يعيش فيه الفرد المسلم متجاهلا عالمه الحقيقي، كما أن هذا العالم الافتراضي

تسبب في نفاذ أفكار الغرب إلينا -اقصد الأفكار الهدامة وليست الأفكار الحية- ونحن اليوم مطالبون بإعادة هيكلة الفرد ليتعامل مع هذه المستجدات تعاملا ايجابيا.

أعود لأقول مرة أخرى أن هذه الأمراض الاجتماعية وليدة نظام سياسي معين خضع له الانسان العربي، ولم يمتلك الوسيلة لإعدام هذا النظام والتخلص من قيوده إلا بالثورات التي لم تكن مرة أخرى في صالحه، فخرج من دائرة الدكتاتورية إلى دائرة الفوضى التي لم تكن أحن عليه له من دائرة الدكتاتورية، وخير دليل على ذلك ما وقع في سوريا أو ليبيا أو حتى مصر، فهذه المجتمعات أرادت أن تتخلص من قيود أنظمة يعتقد أنها سبب في ضعف شعوبها، لكن النهاية يبدو أنها أكثر مأساوية من هذه الأنظمة الدكتاتورية. ومن هنا علينا اليوم أن نفكر في آليات جديدة لهيكلة المجتمعات العربية وقيادتها إلى النهضة بدلا من الفوضى والحرية الزائفة.

ويمكن أن نقول بأن المعادلة الحضارية فكر مالك بن نبي -والتي كانت منطلقاتها إسلامية -كانت وليد ظروف معينة وفهم معين وهذه الظروف تغيرت في عصرنا هذا، لذا وجب علينا أن نفكر في فلسفة جديدة تخدم واقعنا وخصوصية زمننا وتنطلق من قيمنا الإسلامية السمحاء، وليس من العيب أن نعتمد على بعض أفكار

مالك بن نبي، لكن العيب أن نجعل العقل العربي الاسلامي أسير فكر مالك بن نبي فنقتل فيه جرأة الإبداع والتجديد. مع أن الدين الإسلامي يحتوي مفاتيح التقدم ويحث الفرد على تفجير ثورة ثقافية وفكرية واجتماعية وحضارية يقول عز وجل في كتابه الكريم ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ سورة آل عمران الآية 104، فتجن مطالبون بتكييف تطور وسائل الاعلام والتواصل وفقا للخيرية التي أرادها الله منا، وبدل من سلبيتها علينا أن ندعم بها شبكة العلاقات الاجتماعية والتواصل الخيري بيننا وبين غيرنا.

3/ الثقافة والحضارة في التصور الإسلامي

لم يرد لفظ الثقافة بصفة مباشرة في النصوص القرآنية لكنه جاء مستترا و بألفاظ أخرى تحمل معنى الثقافة مثل قوله عزوجل ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾ سورةالإسراء الآية 9، تنص هذه الآية على تقويم القرآن الكريم للسلوك الإنساني، بل إن غاية بعث الرسل هي تقويم سلوك الإنسان وهو تعريف الثقافة بعينها، فنحن نسعى من خلال الثقافة إلى تحسين سلوك الانسان حتى يكون إيجابيا وفعالا، والقرآن الكريم مصدر حيوي للفكر والثقافة والعقيدة ومنهاج السلوك والتربية والأخلاق، ومستودع التشريع

والأحكام والمعرفة، ومقياس الخطأ والصواب، ومصدر عزة هذه الأمة وأساس نهضتها، فمنذ أشرقت أنوار الوحي انطلق التاريخ الإنساني معلنا عن بداية مرحلة جديدة من الوعي والإيمان والثقافة والحضارة.

ويعتبر الفيلسوف الفرنسي روجي غارودي من الفلاسفة المهمين الذين تكلموا عن حقيقة علاقة الثقافة بالحضارة في الدين الإسلامي و في غيرها من الأديان ، من خلال جملة الدراسات والإسقاطات التي قام بها على العديد من الحضارات، كالحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية، فمن خلال مؤلفات غارودي صاحب المشروع الإصلاحي الحضاري يظهر جليا وضمنيا تعريفه للحضارة على أنها " مجمل العلاقات التي يلتزم بها الفرد أو مجتمع مع الطبيعة ومع البشر الآخرين، والبحث عن غاياتهم الأخيرة، تلك التي يسميها البعض " الله " ويسميها الآخرون " الحكمة " [19].

ويولي غارودي في تقديم مفهومه للحضارة أهمية كبيرة للعلاقات الاجتماعية، ويعطي الحضارة بعدها الاجتماعي والإنساني فالحضارة تقوم بتفعيل شبكة العلاقات داخل المجتمع وترفض الانعزالية والفردانية، كما " يرتبط مفهوم الحضارة عند غارودي بمفاهيم أخرى، وهي المجتمع، الثقافة والرؤية الكونية، ولا يفصل كثيرا بين

مفهومي الحضارة والثقافة، إذ تعد الحضارة والوعاء الذي يحتضن ثقافة المجتمع، الذي يعتبره النواة الأولى في تعريف الحضارة... ما يميز كل مجتمع هو اشتراك أفراده وجماعاته في رؤية تتحدد وفقها العلاقات فيما بينهم، ومع الطبيعة ومع الله، تنتج عنها ثقافة المجتمع "[20].

وتعتبر الثقافة والعلم مطلبان من مطالب الإسلام، بل وأولى لهما الإسلام أهمية كبيرة جدا سواء بالنصوص الصريحة أو النصوص المستترة، وهذا ما بينه مالك بن نبي في بحثه عن مسلمات الحضارة وانطلق مالك بن نبي في نميزه بين الثقافة والعلم من سؤال مهم هو: ما هي الثقافة التي توثق الصلات والروابط الاجتماعية وتخلق الفرد الفعَّال؟

وإذا اعتبرنا الثقافة سلوك إيجابي انطلاقا مما يملك الفرد من دراية ومعرفة في شتى المجالات وهذا ما قصده مالك بن نبي في قوله " الثقافة ليست مجرد علم يتعلمه الإنسان، في المدارس ويطالعه في الكتب "[21] أي أن الثقافة ممارسة واقعية وليست تنظير معرفي فقط. والمعنى الشائع للأسف في أذهاننا هو أن الثقافة هي مجرد دراسة لبعض الكتب وجمع لبعض المعلومات.

وانطلق مالك بن نبي من مبدأ يعتبر غاية في الأهمية وهو وجوب الانتهاء من البلبلة الفكرية المضرة جدا والتي تجعل من كلمة ثقافة مرادفا لكلمة عِلْم". ووفقنا لمنهج الفكري لمالك بن نبي يوضح لنا عبر مثالا واقعيا وهو أن الطبيب الجزائري يتساوى مع الطبيب اليهودي أو يفوقه أحيانا فما يتصل بالجانب المهني، معنى هذا أن كلا من الطبيبين قد درسًا في نفس المسار، فالعلم والتعليم لا يختلفان تماما ففي بعض الأحيان نجد أن الطبيب الجزائري يفوق كثيرا الطبيب اليهودي وبرامج التعليم والكتب واحدة، ولكن أين مكمن الاختلاف؟

يجيب مالك بن نبي: أن الاختلاف بين الطبيب الجزائري والطبيب اليهودي يكمن في اختلافهما في رؤيتهما للمشكلات الاجتماعية التي تحيط بكل منهما، فالوسط والمحيط مختلف تماما بين الاثنين وتختلف هنا العادات والتقاليد والأوضاع النفسية، فهو يسميها بالفعالية، التي يراها مالك بن نبي أنها فقدت في المجتمعات العربية بسبب فقدان الصلات الثقافية فالثقافة إذَ ما تكونت في مجتمع نشأت فيه تلقائيا شبكة الصلات الثقافية وتحدد فيه فعالية الفرد[22]. وهذا ما نلمسه في واقعة تاريخية على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام حين كان بحاجة الى طبيب في أحد المعارك فقل للصخابة احتاج طبيبا فجلبوا لهم طبيبين مسيحيين، وهذا ما

اخرجه في " الموطأ " عن زيد بن أسلم مرسلا " **أن النبي -صلى الله عليه وسلم -قال لرجلين: أيكما أطب؟ قالا: يا رسول الله وفي الطب خير؟ قال: أنزل الداء الذي أنزل الدواء** ". وفي هذا الحديث يبين الرسول صلى الله عليه وسلم دور الخبرة ودور المجتمع في اعداد كفاءاته اعدادا عمليا لا مجرد معرفة نظرية واختار الرسول صلى الله عليه وسلم الطبيب الأكثر فعالية والأكثر مهارة.

إن هذه العوامل المختلفة هي التي تؤثر في شخصية الفرد، ويعبر عنها مالك بن نبي بالثقافة، فهي الجو المكون من العادات والتقاليد والأذواق والذي يطبع ويشكل الشخصية في ظاهرها وباطنها [5]. إذن الاختلاف يكمن فيما يحيط بكل منهما، فقد يكون العلم مشتركا بين الناس، ولكن الثقافة مختلفة وهنا يكمن الفرق، لأن الثقافة هي التي تشكل جوانب الشخصية، ونتساءل هما ما لذي يضيفه العلم والثقافة للفرد؟

إن العلم يعطي المعرفة واللياقة والمهارة والعلم يمنحنا القدرة على امتلاك القيم النفسية التي تولد الأشياء، أما الثقافة فتعطي العلم، وتمنحنا القيم الإنسانية التي تخلق الحضارة[23].

إذن الثقافة هي التي تصنع العلم وتولده، وقد لا العلم يولد الثقافة، فالعلم والثقافة ليسا مترادفين، لأن العلم وفق هذا يولد

الأشياء ويولد التقنية، ويضفي الطابع العملي على المنتوجات العلمية، ولكن الثقافة تنتج جميع القيم التي تصنع في الأخير الحضارة الإنسانية.

وهذا ما نجده في ثقافة القرآن الفكرية التي يخاطب بها الإنسان فهي ذات طابع وهدف علمي شمولي، فكل فكرة أو معرفة موجهة في القرآن الكريم للعمل، حتى الثقافة العقائدية في القرآن الكريم لا معنى لها إن لم تترجم إلى سلوك وعمل، لهذا فالقرآن يمقت القول المفارق للعمل يقول عزوجل ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ سورة الصف الآيتين 2،3، وفي مورد آخر يربط النص القرآني بين ثقافة الإيمان النظري والعمل التطبيقي، ويعتبر الفصل بينهما نافيا للإيمان والنجاة يقول عز وجل﴿ **وَالْعَصْرِ، إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ سورة العصر، وفي هذه السورة توجيه للإنسان نحو ثقافة تطبيق الفكر وتحويلها إلى سلوك ناجح وفعال، ويدعو إلى تجسيدها عملاً منظوراً وملموساً في الحياة، وهكذا يؤسس القرآن لثقافة الفكر والعمل وليس المثقّف سوى منظومة سلوكات إيجابية يصنعها التفكير السليم، ويحرص المثقف وفق النص القرآني على الاستقامة ومكارم الأخلاق.

ويضرب لنا مالك بن نبي أمثلة على دور الثقافة في صناعة النصر والمجد والحضارة، ويتمثل هذا المثال في الفيتنام المستعمرة التي واجهت الاستعمار اللبرالي لا بالعلم بل بالإدراك والفهم الذي عرف معناه كل الفيتنام من الفلاح إلى أعلى شخص، وهكذا لم يستطع أيضا الشعب الجزائري المحتَل أن يجد مخرجا للاستعمار الفرنسي إلاّ من خلال المعرفة الكاملة بضرورة خروج المستعمِر من بلادنا، ليس خروجا عسكريا بل خروجا نفسيا من أذهاننا وذواتنا وهذا ما يريده بن نبي. وليست الفئة المتعلمة العلمية هي التي أخرجت الاستعمار بل أخرجته ثقافة الفلاح والطبيب والنجار والعجائز والكهول.

وهي الحقيقة التي نعيشها اليوم إذ أن مشكلة الشعوب العربية رغم أنها نجحت في طرد الاستعمار، لكنها بقيت تعيش تحت وطأة الاستعمار الثقافي الغربي، وهي اليوم تعيش أزمات بعد أزمات ولم تكن القضية قضية إخفاق علمي فحسب بل هو إخفاق ثقافي بالدرجة الأولى[24]. ورغم أن الدين الإسلامي منح المسلمين كل الآليات الثقافية لتأسيس الدولة الكونية إلا أنهم لم يكونوا -في زمننا هذا خاصة- في مستوى تطلعات الدين الإسلامي لضعف ثقافة فهم للدين، فالثقافة هي التي تكوّن مجتمعا قويا يجمع بين العوالم الثلاثة بين أشخاصه وأشيائه وأفكاره، وما نعانيه اليوم هو الفصل

بين هذه العوالم، وهذا ما جعل الدول الإسلامية تعيشا شتاتا وتنافرا، رغم أن ثقافة القرآن تدعو الى الوحدة ولم الشمل، وفي مثل هذه الظروف الصعبة التي تعيشها الدول الإسلامية فإن الثقافة هي طوق النجاة للمجتمع، حين يتعرض لخطر الغرق والزوال [25] . فالثقافة إذن هي الممر الآمن وهي الطريق إلى تجاوز كل النكسات التي تصيب كل أمة أو دولة.

وعلينا أن نميز بين الثقافة والعلم في طريقنا إلى تأسيس الحضارة، فالعلم موضوعي تغيب عنه الذاتية، والعالم مراقب لتغيرات الظواهر، ويراقب الأشياء لكي يسيطر عليها ويتحكم فيها لكن الثقافة أوسع نطاقا من العلم، فهي من تخلق الإنسان وتخلق رجل العلم، وهي التي تدفع الإنسان ليراقب ذاته قبل كل شيء فهي " تلك هي النظرة التي تسمح للإنسان أن يسيطر على ذاته، وأن يسيطر على الأشياء التي ابتدعتها عبقريته.

ويتحدَّث القرآن الكريم عن العلم بالإخبار عنه بصيغة السؤال والاستِفهام بعدم المساواة بين مَن يعلم (المتعلِّم)، ومَن لا يعلم (الجاهل) فيقول سبحانه وتعالى﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ** ﴾سورةالزمرالآية9، وتارة يكون حثه على العلم والتعلُّم بما أعده من جزاء وفضل للمتعلم

كقوله عزوجل﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾سورة المجادلة الآية 11. وهذا يعني أن العلم مقدمة ضرورية لفعالية السلوك واستقامته، لكنه إن بقي على المستوى النظري ولم يترجم إلى أفعال لم يفد صاحبه في شيء.

والثقافة أوثق صلة بالشخصية فهي أوسع من جمع معلومات معينه، لأنها نظرية سلوكية أكثر منها معرفية فهي سلوك وشخصية وطباع وذوق وحركة ونغم ولون، يقول عزوجل﴿ **أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا** ﴾ سورة المزمل الآية 4. والترتيل يعني التنضيد والتنسيق وحسن النظام يقول تبارك وتعالى ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ**﴾ سورة الروم الآية 22. في الآيتين الأولى والثانية نمط ثقافي في ترتيل القرآن ويحمل النغمة والثانية تحتوي التنوع الثقافي من خلال تنوع اللسان واللون، فثقافة القرآن قائمة على التنوع. ويتحول العلم إلى ثقافة إذا أدى إلى استقامة السلوك يقول عزوجل﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ سورة فاطر الآية 28.

تدل هذه الآية على أن العلماء بالله وبدينه وبكتابه العظيم وسنة رسوله الكريم هم أشد الناس خشية لله وأكملهم خوفا منه سبحانه، فالمعنى إنما يخشى الله الخشية الكاملة هم العلماء بالله

الذين عرفوا ربهم بأسمائه وصفاته وعظيم حقه وتبصروا في شريعته وعرفوا ما عنده من النعيم لمن اتقاه والعذاب لمن خالفه وعصاه وترجموا علمهم وفهمهم إلى سلوك ينفعهم وينفع غيرهم، وبغير هذا لا يمكن أن نحقق ثقافة، ولا يمكن أن نؤسس حضارة يقول عزوجل ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾سورة هود الآية 112، والاستقامة هنا هي الثقافة المطلوبة.

وحتى تتحقق كونية الإسلام كما أريد لها في النص القرآني يجب أن تعود الثقافة في المجتمع الإسلامي إلى مستواها الحقيقي وتحتل المكانة اللائقة بها كما أراد الإسلام، وعندما نحدد الفهم الكامل للثقافة كمفهوم يسهل علينا فيما بعد أن نجعلها ونحولها إلى عملية تركيبية ضرورية لتحقيق وتطبيق هذه الأشياء التي منحنا إياها الفهم الحقيقي للثقافة، ولن يتسنى لنا هذا الفهم إلا من خلال منهج يحدد لنا طبيعة ومحددات هذا الفهم للثقافة وهذا يحتم علينا الربط بين الثقافة والتاريخ والثقافة والتربية.

2/ الربط الإسلامي بين الثقافة والتاريخ والتربية

يربط التصور الإسلامي ربطا محكما بين الثقافة والتاريخ والتربية حتى يؤسس للحضارة، وهذا ما وضحة مالك بن نبي حيث اعتبر كل الثقافة والتاريخ والتربية في علاقة تكاملية، وبينهم علاقة وظيفية

وجعل من الثقافة تاريخا ومن التاريخ ثقافة يقول في ذلك" لا يمكن لنا أن نتصور تاريخا بلا ثقافة، فالشعب الذي يفقد ثقافته يفقد حتما تاريخه"[1]. فالثقافة تراكم وهي تاريخ مجتمع متحضر، إنها الوسط الذي تتشكل فيه جميع خصائص الإنسان والمجتمع المتحضر، وهي معنى الكتلة التي تجتمع فيها عادات وعبقريات وأذواق وعواطف المجتمع، فهي بلغة مالك بن نبي" ما يعطي الحضارة سمتها الخاصة ويحدد قطبيها: من عقلية ابن خلدون وروحانية الغزالي أو عقلية ديكارت وروحانية جان دارك هذا هو معنى الثقافة في التاريخ "[26]، فهي إذاً كل ما يَّشكله الحداد والفنان والراعي والعالم والإمام، وبهذا يتركب التاريخ ويُصنع، هذا معنى الثقافة في التاريخ، فهي كل ما تصنعه طبقات المجتمع المختلفة عبر هذا التاريخ الإنساني يقول عزوجل ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ** ﴾سورة الروم الآية 42.

هو أمر بالسير في الأرض وقراءة التاريخ والاكتشاف، والنظر في الآثار والاستماع إلى القصص والاخبار، لنعلم عاقبة غيرنا وسر التخلف والتقهقر، ولنعلم عاقبة غيرنا من الأمم الذين أشركوا فأهلكهم الله، فأهلكَهمُ اللهُ جزاء كفرهم وافسادهم في الأرض، وهذا يعني أن الاطلاع على تاريخ غيرنا يشكل ثقافتنا، ومن الجانب

الإيجابي يستدعينا القرآن الكريم للتعارف مع كافة الشعوب والاستفادة من بعضنا بعضا ودعوتهم يقول عزوجل ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ سورة الحجرات الآية 13.

والمجتمع المسلم يجب أن يسعى إلى أن يجعل الثقافة نظاما تربويا شاملا، لذلك يجب أن نربط الثقافة بالنظام، ويتجلى معنى الثقافة في التربية من خلال تحديد صياغة هدفها، على أساس أن الثقافة ليست علما يخص طبقة من طبقات الشعب، بل إنها دستور وقانون تفرضه الحياة العامة، وعلاقة التربية بالثقافة أشبه بعلاقة راعي الغنم والعالم بمعنى التقاء الحكمة النظرية مع الحكمة العملية، ووظيفة الثقافة كوظيفة الدم في الجسم، فهي التي تغذي المجتمع وهي التي تغذي حضارته[27]، وتتدخل الثقافة في جميع شؤون الفرد وخصوصياته وتسعى إلي بناء مجتمع وحضارته .

وبهذا تتحول الثقافة أسلوب حياة في المجتمع بحيث تسعى إلى التأثير على كافة أطياف المجتمع.

4/ العناصر الثقافية ودورها في صناعة القيم

أ-التوجيه الأخلاقي

يركز التصور الإسلامي على ربط كل شيء بالجانب الأخلاقي وتركيزه على علاقة الثقافة بالأخلاق أشد، وهذا ما بينه مالك بن نبي في مشروعه الثقافي الذي يوحد فيه بين الثقافة والأخلاق، هذه الأخيرة هي سلوك يتفاعل فيه الضمير والفكر والعاطفة والإرادة والتنفيذ والعادة، وكل هذه تّكون وحدة سلوكية أخلاقية نعيشها في واقع الحياة اليومية، وطبيعة اختيارات الأفراد والأمم لأنماط السلوك هي ما يشكل القيم للمجتمعات، وهي ما تعطي كل أمة طابعها الأخلاقي الخاص بها، والذي يميزها عن غيرها من الأمم.

وتناول مالك بن نبي فكرة الأخلاق في إطار الدين أو ما يسميه (بالفكرة الدينية)، فالفكرة الدينية تصيح مركزا أساسيا لأي بناء حضاري أو تفاعل حضاري، والتفاعل عملية فكرية روحية تسمو بقيمها المطلقة لتساهم في البناء وتدفع إلى الأمام وإلى الأعلى حتى إذا نزلت إلى مستوى المادة تحول التفاعل الحضاري إلى صدام حضاري[28].

وتعتبر الأخلاق محور النمو الاجتماعي والثقافي والاقتصادي وفعالية المجتمعات تزيد أو تنقص بقدر ما يزيد فيها تأثير المبدأ الأخلاقي أو ينقص يقول عزوجل ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ**

الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ۞ سورة آل عمران الآية 110، فخيرية الأمة هنا مستمدة من ثقافة محاربة المنكر وتغييره، ونشر القيم الصالحة ومحاربة الفساد .

وفي المقابل وصف المولى عزوجل بنو إسرائيل بنقصان المعروف وعدم نهي بعضهم بعضا عن المنكر فانتشرت فيهم ثقافة الفساد وهذا ما أدى إلى زوال حضارتهم يقول عزوجل ۞**كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ۞سورة المائدة الآية 79 .

يجب أن تكون الأخلاق في التصور الإسلامي أداة عملية تؤدي إلى الضبط النفسي والاتزان الشخصي، وهي في نفس الوقت جوهر الواقع، وهي الميدان الذي تحيا فيه الحضارة وتنمو وتتقدم.

وتأثير المبدأ الأخلاقي في الثقافة هو المقوم الأساسي للثقافة لتكون الثقافة بذلك أساس الصلة بين أفراد المجتمع بحيث تجعلهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، هذه الروح الخلقية هي منحة من السماء إلى الأرض تأتينا مع نزول الوحي، ومهمتها في المجتمع ربط الأفراد بعضهم ببعض كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى ۞ **وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت**

بين قلوبهم لكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ۞ سورة الأنفال الآية 63.

وهذا المبدأ بمثابة المؤشر لانطلاق الحضارة في الإسلام ويبرر مالك بن نبي أثر هذا المبدأ الأخلاقي حتى في الحضارة الغربية حيث يقول" فإن أكبر مصادر خطئنا في تقدير المدينة الغربية أننا ننظر إلى منتجاتها وكأنها نتيجة علوم وفنون وصناعات، وننسى أن هذه العلوم والفنون والصناعات ما كان لها أن توجد لولا صلات اجتماعية خاصة، لا نتصور هذه الصناعات والفنون بدونها، فهي الأساس الخلقي الذي قام عليه صرح المدينة الغربية من علوم وفنون، بحيث لو ألغينا ذلك الأساس لسرى الإلغاء على جميع ما تشاهده اليوم من علوم وفنون"[29]، يؤكد مالك بن نبي بأن الحضارة ما كان لها أن تقوم لولا هذا المبدأ الأخلاقي والمظاهر المتعددة التي تبين لنا العنصر الأخلاقي له دوره في قيام أية حضارة .

والعلاقة بين الثقافة والأخلاق والحضارة علاقة طردية، فكلما ازدهرت القيم الأخلاقية الإيجابية ازدهرت معها الثقافة والحضارة والعكس أيضا. فكلما ركد الجانب الأخلاقي ركدت الثقافة وزالت الحضارة، ويمكن القول بأن الأخلاق هي تركيب تربوي لجميع عناصر الثقافي، وهي أولى المقومات في الخطة التربوية لأي ثقافة.

تعمل الأخلاق على بناء مجتمع مترابط ومتماسك، وهي من أهم عناصر الثقافة التي تعمل على بعث الحضارة وقيام مجتمع متحضر في جميع الميادين " وقوة التماسك هذه جديرة بأن تؤلف لنا حضارتنا المنشودة"[30]، ولا يمكن لأي ثقافة أن تنهض بل وتبقى في مسار الثقافات الحية إلا ببعث القيم الأخلاقية التي بدورها تحقق اللحمة الاجتماعية بين أفراد المجتمع الواحد، ففي حديث أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا"** رواه البخاري. وفي هذا دلالة صريحة بأن الفعل الثقافي في الإسلام ينشد الوحدة والتماسك بين أفراد المجتمع.

ب -التوجيه الجمالي

لا يستهين الإسلام بالجانب الجمالي لسلوكنا وصناعتنا، لكنه يربطه بالجانب الأخلاقي، فالأخلاق تبعث في المسلم إرادة القوة وأرسى القرآن في ضمير المسلم تحديدا جوهريا لإرادة القوة، وهي الدافع القوي لأي نشاط أخلاقي لتكوين عمل حضاري. في حين يضيف الجمال للعمل الأخلاقي ذوقه، فإذا كانت الأخلاق قد جمعت فالجمال يعطينا قيما جمالية لهذه العلاقة، كما أن الإسلام لم يهمل ولم يزهد هذا الجانب وهذا ما يظهر في قوله عزوجل ﴿ **وَلَكُمْ فِيهَا**

جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿سورة النحل الآية 06، والجمال هو من يضفي طابع المصلحة لا المنفعة في الحياة، وكلمة الجمال ليست نفعية، فالركوب مصلحي، فعندما يركب البغال والحمير نقضي مصالحنا، ولكن القرآن هنا يبرز قيمة أخرى هي القيمة الجمالية[31].

يجب على الثقافة أن تكفل الجانب الذوق الجمالي لكي تؤسس قيم ثقافية. واجتماعية يعمل التاريخ على تسجيلها وتدوينها، لأن التاريخ عبارة عن مذكرة لأهم الحركات والأفكار التي يقدمها الفرد للمجتمع، وبذلك يكون الفرد بحاجة إلى منطق عملي أو ما يسميه مالك بن نبي بالفعالية، والمجتمع الذي تحققت فيه الوحدة ونشأ الانسجام والتكامل بين أفراده وتحققت صورته الجمالية وتحقق شكله، ستتحقق الفعالية فيه، ويسوده المنطق العملي الذي هو تركيب الحركات حسب نتيجتها، بمعنى ربح الوقت والقيام بأعظم الأعمال في أقل الأوقات وأقل التكاليف، هذا يعني أنه لا مجال للعبث بالوقت "ونحن أحوج ما نكون إلى هذا المنطق لأن العقل المجرد متوفر لدينا غير أن العقل المنطقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة و الانتباه سيئ يكاد معدوما "[32] . والوقت في الدين الإسلامي مثمن جدا.

ونحن اليوم نعيش كمسلمين عالم تنقصه الفعالية والحركية في سلوكنا الاجتماعي، كما يفتقد المسلمون اليوم أيضا إلى منطق الفكرة، ومنطق العمل والحركة، فمنطق العمل يعزز منطق الفكرة وليس المهم أن تكون الفكرة جيدة بقدر ما يهم أن يكون تطبيقها جيدا، فالإسلام رغم تأسيسه للعلم وتمجيده للأخلاق والثقافة والحضارة الا أن المسلمين كمجتمعات ودول عجزوا اليوم عن تجسيد هذه الأفكار الى واقع. واختفى فيهم الجمال وانهارت الثقافة ومعها الحضارة وانتقل الإسلام من سعة الكونية في نصه إلى ضيق القومية في واقع مجتمعه.

د-التوجيه الفني أو الصناعة

يعتبر التوجيه الشرط الأخير في بناء ثقافة مع اختلاف المهن والوظائف لأن" كل الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم تدخل في مفهوم الصناعة "[33] . وجاءت الإشارة في النص القرآني إلى هذا في قوله تبارك۞ **وتعالى وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**۞ سورة الحديد الآية 25 وقوله أيضا ۞ **أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**۞ سورة التوبة الآية 109.

الصناعة هي التي تحقق كسب العيش للفرد وهي التي تحافظ على كيانه واستمراره حتى يستطيع أن يبني مجده وحضارته، ولكي يحقق الفرد هذا الهدف يقترح مالك بن على المجتمع الإسلامي إنشاء مجلس للتوجيه الفني حتى يستطيع سد الفراغ الموجود في المجتمع.

ويمكن أن نقول إنه لقيام ثقافة معينة في مجتمع معين يجب أن تقوم علاقات بين أفراد المجتمع على أساس أخلاقي لكي نحقق معنى الإرادة في العمل والقوة فيه، وتخلق هذه الصورة فيه ذوقا جماليا بصورة سريعة وفي وقت اقل، وهذا ما يعرف المنطق العملي الفعال، وتحتوي الثقافة على أربعة فصول فصل الأخلاق وفصل الجمال وفصل المنطق العملي وفصل العلم، وبتظافر هذه العناصر تتحقق الحضارة.

إن إسقاط هذه العناصر على أرض الواقع أدى في الحضارة الإسلامية -وهذا ما يهمنا-إلى سيطرة العلم على أوضاع الثقافة وهذا الوضع قد يحيلنا إلى أزمة ثقافية، فالأزمة تولدت لأننا تناولنا العلم على أنه ثقافة، ظنا منا بأن العلم يغني عن الثقافة، وإذا عشنا أزمة ثقافية فمعنى هذا أننا نعيش أزمة حضارية على كافة المستويات. فإذا كان اتجاه الثقافة علمي فقط، فإن هذا ينهي وجود الأخلاق، وتغيب الروح التي تحرك كل عمل أنساني، وهذا ما نشاهده

في الواقع الإسلامي حاليا، بداية انتشار ثقافة غاب فيها معنى أخلاق وهذا يؤدي ركود ثقافي لتحضر معه الأزمة الثقافية، وقد حذرنا المولى عزوجل من هذا الركود إذ قال في كتابه الكريم ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ** ﴾ سورة الأنفال الآية 60 فالإعداد والإنتاج الحضاري واجب على المسلم في كل وقت وحين وفي كل المجالات ، والحديث عن المبدأ الأخلاقي يجرنا إلى الحديث عن المبدأ الجمالي، فهو أساس من أسس المنهج التربوي وإن أهمية هذه العلاقة في تركيبه الثقافة تحددها المعادلة التالية:

مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي = اتجاه الحضارة

وهذه العلاقة يظهر فيها جانب له علاقة بالقيم حيث تأتي في ترتيب خاص يقدم أو يؤخر المبدأ الأخلاقي على الذوق الجمالي في سلّم القيم الثقافية، وحتى يتكون نموذج حقيقي في المجتمعات الإسلامية بحيث يكون سليم ذوقيا وجماليا يجب احترام هذا الترتيب المذكور في المعادلة[34]. وإن أولوية عنصر على عنصر آخر، ونقصد هنا المبدأ الأخلاقي والمبدأ الجمالي يحدد طبيعة الثقافة بل اتجاه الحضارة، فالأولوية التي يمثلها أحد المبدأين في تركيب الثقافة هي

التي تحدد ذاتية الثقافة كما تحدد الاتجاه العام للحضارة، والمبدأ الأخلاقي في التصور الإسلامي الحضاري يسبق المبدأ الأخلاقي الجمالي، فكل فعل أخلاقي فعل جمالي، على أن السلوك الثقافي في التصور الإسلامي ينطلق من المبدأ الأخلاقي ويصل إلى الفعل الجمالي، وهو ما يتوافق مع الرؤى الكونية الجمالية للعديد مع الفلسفات الأخلاقية كالفلسفة الأخلاقية الكانطية.

الهوامش

1-ابن منظور: لسان العرب، ج4، دار صادر، بيروت، ط1، 1955، ص196،197.

2- مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، وزارة التربية والتعليم، بيروت، دط، 1994، ص157

3-عبد الرحمان بن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ج2، دار النهضة، مصر، دت، ص 538، 539.

4-المرجع نفسه ، ص43.

5- مالك بن نبي (1905-1973م) من أعلام الفكر الإسلامي في القرن العشرين. يعدّ المفكر الجزائري مالك بن نبي أحد رُوّاد النهضة الفكرية الإسلامية في القرن العشرين ويُمكن اعتباره امتدَادًا لابن خلدون، ويعد من أكثر المفكرين المعاصرين الذين نبّهوا إلى ضرورة العناية بمشكلات الحضارة. كانت جهود مالك بن نبي في بناء الفكر الإسلامي الحديث وفي دراسة المشكلات الحضارية عموما متميزة، سواء من حيث المواضيع التي تناولها أو من حيث المناهج التي اعتمدها في ذلك. وكان بن نبي أول باحث يُحاول أن يُحدّد أبعاد المشكلة، ويحدد العناصر الأساسية في الإصلاح، ويبعد في البحث عن العوارض، وكان كذلك أول من أودع منهجًا مُحدّدا في بحث مشكلة المسلمين على أساس من علم النفس والاجتماع وسنة التاريخ".

6-مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط1، 2013، ص50.

7-المرجع نفسه، ص64.

8-جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1، ص476.

9 - زروخي الدراجي : مشكلة المنهج في العلوم الإنسانية و الاجتماعية ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة الجزائر ، جوان 2012 ، ص103

10- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر العربي بيروت لبنان، 2002، ص17

11- المرجع نفسه ، ص 103

12- المرجع نفسه، ص 61

13- مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، ص 70

14 علي القريشي : التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، 1989، ص 70

15- المرجع نفسه ، ص 89

16- المرجع نفسه ، ص19

17-المرجع نفسه، ص26

18- روجي غار ودي : الإسلام ، ترجمة اسعد وجيه ، د ت ، ص 68

19-روجي غارودي: كيف نصنع المستقبل، ترجمة منى طلبة، أنور مغيث، دار الشروق، القاهرة، ط3، 2002، ص280.

20- لبنى برهوم : الفلسفة وخطاب الفعل عند روجي غارودي ،كتاب جماعي لمجموعة من البحوث في إطار النشاطات العلمية لمخبر حوارات الحضارات والعولمة، اشراف عبد المجيد عمراني، دار قانة للنشر والتجليد، باتنة، الجزائر، ط1، 2015، ص149، 148.

21-محمد فاضل الجمالي: نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي,ط1,الدار التونسية, تونس 1972,ص125

22-نقلا عن: محمد فاضل الجمالي: نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي، ط1، الدار التونسية، تونس 1972، ص58

23-اسماعيل سامعي: مالك بن نبي والفقه الحضاري، دار الهدى، الجزائر 2006، ص67.

24-مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص76.

25-محمد فاضل الجمالي: نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي، ص45

26-المرجع نفسه، ص28

27-مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص110

28-المرجع نفسه، ص36.

29-مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص78

30-محمد فاضل الجمالي: نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي، ص138.

31-المرجع نفسه، ص144

32-مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص89.

33-المرجع نفسه , ص76.

34-مالك بن نبي: من أجل التغيير، دار الوعي, الجزائر,ط1, 2013, ص54.

سادسا / القيم الإسلامية في مواجهة طغيان

" إن الإسلام قد أثر تأثيرا حسنا في رفع مقام المرأة أكثر بكثير من قوانيننا الأوروبية، وخير طريقة لتقدير التأثير الذي أحدثه الإسلام في رفع مقام المرأة في الشرق – يقصد المناطق الإسلامية وخاصة العالم العربي – أن نبحث عما كان عليه حالها قبل القرآن"

جوستاف لبون

سادسا/ القيم الإسلامية في مواجهة طغيان العلم

عرفت الأبحاث البيولوجية تطورا رهيبا في الفترة المعاصرة وحقق المنهج التجريبي فيها نجاحا لم تكن العقول تتوقع الوصول إليه الى درجة أننا أصبحنا نتكلم عن الآلية في البيولوجيا، وبلغت الأبحاث البيولوجية ذروتها في الهندسة الوراثية إذ كللت هذه الأبحاث بميلاد البحث العلمي الشهير باسم الاستنساخ، والذي انتقل من مجاله البيولوجي الى المجال الفلسفي والديني، واختلفت العقول في تناولها لهذا البحث من حيث القيمة والفائدة، ووجدنا أنفسنا أمام مجموعة من المشكلات القيمية، أبرزها : ما هي الغاية المرجوة من مثل هذه الأبحاث العلمية ؟ وهل هي في صالح الإنسان؟ ومن يجب أن يطرح مثل هذه التساؤلات هل هم رجال الدين أم الفلاسفة وعلماء البيولوجيا أم الباحثون في الظواهر الإنسانية والاجتماعية؟ في ظل هذه التساؤلات هناك أمر واضح وهو أن الدين الإسلامي له مواقفه الثابتة التي تحمي الإنسان، وتصون كرامته أما طغيان العلم، وهذا ما سنبينه من خلال تعرضنا لبحث الاستنساخ البشري وبحث تحديد جنس الولد وموقف فلسفة القيم الإسلامية من هذه الأبحاث.

1. الاستنساخ البشري

الحديث عن الاستنساخ البشري، حديث عن قمة التطور العلمي الذي بلغه علم الوراثة من جهة، وحديث عن قدرة الإنسان على تغيير سنن الكون **" فبدل أن تقابل الخلايا الجنسية بين ذكور النوع و إناثه، لتؤدي إلى إنتاج ذرية جديدة يمكن أن تنشأ الذرية من خلايا المخلوق الجسدية لا الجنسية "**[1]. كما أن رجال الدين في كل مرّة يقفون ضد هذه الأبحاث بكل ضراوة، لأنها في اعتقادهم تغيّير لسنن الكون، وعلماء البيولوجيا منبهرون بأبحاثهم هذه، ولا يمكنهم التخلي عنها حتى وإن كان هناك خلاف بينهم، وأصبح علماء الوراثة يتفنّنون في نسخ الذرية الجديدة وفقا لمعايير الجمال التي يريدونها، وتحول تشكيل الذرية الى هندسة ميكانيكية ننحكم فيها اليد البشرية.

2-الاستنساخ الحيوي ومشكلاته الأخلاقية

يطرح الاستنساخ البشري مجموعة من الأخطار والمخاوف بدايتها أننا في علم الاستنساخ لم نعد نعلم إلى من تؤول ملكية جسدنا، وما مصدرنا وأصلنا، وفي هذا مبلغ الخطورة على الفرد والمجتمع، لأننا وفق هذا قد نلغي وجود الأسرة والعائلة، و كما نعلم فإن العلوم الإنسانية و الاجتماعية في دراستها للسلوك البشري تنطلق من هذه المعالم **" إن الاستنساخ الحيوي يمكن أن يؤدي**

إلى القضاء على مفهوم الوالدية ، فنحن في ظل تطوركهذا لا نعود بحاجة إلى وجود الأب أو الأم بقدر ما نحن بحاجة إلى مؤسسة كبيرة تقوم برعاية النسخ التي يتم إنماؤها صناعيا في أجهزة خاصة وليس المتصورأن مثل هذه النسخ ستحتاج إلى أن تنشأ في وسط عائلي بالمعنى المفهوم حاليا ، مما يعني أننا سنقضي على معنى الوالدية و بالتالي على معنى العائلة" [2].

لقد تعدى الأمر إلى أكثر من هذا لأن الشركات العالمية أصبحت تتنافس لامتلاك الجينوم البشري والتحكم فيه والمتاجرة به، وكأن الهندسة الوراثية حوّلت الجينات البشرية إلى بضاعة مادية وخير دليل على هذا سيطرة الشركة الأمريكية المعروفة باسم " Celera Genomics " على سوق الجينوم، وهذه الشركة تأسست في ماي 1998 في حين قد يكون" **إنشاء احتكار على الاستخدامات التجارية لمتوالية الجينوم البشرية في مصلحة شركة Celera من الناحية التجارية، فلن يكون ذلك في مصلحة العلم أو عامة الجمهور"** [3].

إن حقائق كهذه تتطلب من المختصين في العلوم الإنسانية والاجتماعية والفلاسفة ورجال الدين، ليس فقط الدفاع عن الإنسان إزاء هذه النشاطات، وإنما خلق فروع تقف في وجه التطبيقات العلمية التي لا تليق بجوهر الإنسان، ولا تخدم مصلحته

لا عن قريب ولا عن بعيد " **فالناس لا يعرفون ماذا ينتظرهم ولا يعرفون ما ينتظر أبناءهم، ذلك لأن تكنولوجيا هذا النوع كما يعتقد الكثيرون قد تصل إلى هندسة الإنسان نفسه بمعنى أن تسيطر عليه وعلى سلوكه، وتحوّله إلى أداة يمكن التحكم فيها واستخدامها** "[4].

ولا يستبعد أن تستخدم مثل هذه الأبحاث العلمية كأداة من طرف الدول العظمى في صراعها مع غيرها، وتجعل منها سلاح تؤثر به هذه الدول على القرارات السياسية لغيرها من الدول، ولا يخفى علينا أن الحرب البيولوجية اليوم أصبحت أكثر خطورة على الإنسان من الأسلحة النووية الفتاكة، وإذا لم تتول الفلسفة والعلوم الإنسانية والاجتماعية ورجال الدين مثل هذه القضايا فإن دراسة السلوك البشري وحده لا يمكن أن تكون في مستوى طموح البشرية.

ويطرح الاستنساخ البشري مشكل كبير جدا يتمثل في تشابه الهويات، فنحن إذ نستنسخ فردا فإننا نخلق ذاتا قديمة في صورة جديدة، ونصنع توأما متطابقا، لكن مع الاختلاف في السن، وفي حال ارتكاب جريمة معيّنة يحدث تطابق على مستوى البصمات، ولا يمكن بذلك إلحاق الجريمة بمرتكبها، فنحن نميّز بين البشر من خلال مظاهرهم الخارجية، ومن خلال فحص بصماتهم، وهذا

التميّز يتعذّر علينا إذا وجدنا أنفسنا أمام جماعة من الأفراد المستنسخين على هيئة واحدة.

إن الثورات البيولوجية تسير بتقدم رهيب، وقد لا تستوعب عقولنا التطور الذي ستشهده البيولوجيا في السنوات القادمة والإنسان ليس بحاجة إلى مثل هذه الثورات البيولوجية بقدر ما هو بحاجة إلى إعداد إنسان يتكيّف ويحمي نفسه من هذا التطور البيولوجي، وهي مهمة يبدو أن الدين الإسلامي تولاها، ووقف ضد هذا التطور الذي يفتقد إلى الغايات النبيلة، ويطرح العديد من القضايا الأخلاقية التي أثرت بالسلب على حياة الفرد وحياة المجتمع وخاصة حياة الأفراد والمجتمعات المتدينة. ومن جملة المشاكل التي يطرحها الاستنساخ البشري.

أ-القضاء على وحدة الأسرة

من المخاوف المستقبلة لاستنساخ البشر إحداث تغيرات في العلاقات الإنسانية تغيرات في مجال الأسرة في علاقة أفرادها مع بعضها البعض بين الأم والأب وبين الابن والأم وبين الابن والأب وبين الأبناء مع بعضهم البعض، وأدى هذا إلى تفكيك الأسرة والتكوين العائلي، وقضى نهائيا على مفهوم الأمومة ومفهوم الأبوة، وانتهي في ضل الاستنساخ البشري عصر الرجال، فالمرآة حتى تنجب ليست في حاجة إلى الرجل، و زمن الأزواج قد ولى، و ظهر زمن أصبح فيه

الفرد المستنسخ في غنى عن أم و أب يوجدانه ويهبانه الحياة ويرعيانه بقدر ما أصبح في حاجة إلى مؤسسة تدعمه وترعاه، بحكم نموه في أجهزة صناعية خاصة، وبهذا أصبحت الأمومة والوالدية والتواصل الأسري من مخلفات الماضي.

كما سيقضى الاستنساخ البشري أيضا على أسمى علاقة تجمع بين الذكر والأنثى وهي رابطة الزواج، وهذا مخالف لشريعة الله المجسدة في قوله تعالى﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾ [5]. فالمولى عز وجل أراد للإنسان أن يستقر ويحيا حياة مبنية على أسس دينية صحيحة يسد بها كل الشرور والمآسي والآفات، غير أن الاستنساخ البشري عاكس هذا تماما، فهو مخالف لطريقة التناسل الطبيعية التي اعتاد الناس عليها، فغير العلاقة بين الزوج والزوجة كما سبق الذكر وبين الآباء و الأبناء، وخلق نوع من اليأس في نفوسهم وهذا ما يعترف به عالم الوراثة جيمس واطسون* إذ يقول " إن أول رد فعل سيولده التكاثر النسخي في البشر هو اليأس، و قد يؤدي إلى تغيير طبيعة الارتباط بين الطفل و والديه تغييرا جذريا للذين من نشئوا نشأة دينية، هذا عدا عن القيم التي يحملها كل فرد و هي قيم خاصة به كشخص متميز عن غيره من الناس." [6]. يعني هذا أن الاستنساخ البشري مخالف للأخلاق الدينية

التي تضبط العلاقات بين الطفل ووالديه وفق تعاليم ثابتة ومخالف للقيم الأخلاقية التي اكتسبها الطفل من تلقاء نفسه، وقد يعاني الفرد المنسوخ من أزمة الهوية معاناة خطيرة، لأنه يجد صعوبة في تمييز نفسه عن نسخته الأصلية، وهناك الكثير من الصعوبات التي تواجهه في الحياة سواء كان أبا أو طفلا من نسخة أخرى نلاحظ هنا توافق الطرح الإسلامي مع طرح العالم جيمس واطسون.

وفتح الاستنساخ البشري الطريق إلى الشواذ سواء رجالا كانوا أم نساء، فالمرأة تستطيع أن تأخذ خلية من المرأة التي تعاشرها جنسيا، إذا أرادت إنجاب بنت، وأما في حالة رغبتها في إنجاب ذكر تأخذ خلية جسمية من رجل وتضعها في بويضتها منزوعة النواة وتحملها في رحمها لمدة تسعة أشهر، تم تنجب و يصبح لها ولدا يحمل اسمها، والرجال الشواذ يمكنهم أيضا فعل ما فعلته المرأة، بأخذ بويضة من إمرأة ونزع نواتها وزرع خلية الرجل الجسمية فيها تم زرعها في رحم إمرأة أخرى أو في نفس رحم المرآة المتطوعة بالبويضة ويكون الجنين في كلتا الحالتين حاملا لنفس الصفات الوراثية للشخص الذي أخذت منه الخلية الجسدية، فالأطفال المولودون من طرف رجال ونساء شاذين جنسيا قد لا ينتمون للأم التي حملتهم و لآبائهم الذين يربوهم [7] ، وقد أثر كل هذا بالسلب على مفهوم

الأسرة بالقضاء على المبادئ الأساسية الثابتة القائمة عليها وهي الأم والأب والطفل.

وقد يتساءل البعض ويقول هل تتأثر الأسرة إذا أخذت خلية جسمية من رجل عقيم ووضعت في بويضة زوجته؟ للوهلة الأولى يتبين لنا أن الأمر أفضل من الحالة الأولى إلا أن الحقيقة عكس ذلك تماما، فإذا أنجبت الأم طفلا من خلية جسدية لوالده يولد طفلا لا تربطه بها أي علاقة وراثية، لأنه يحمل الصفات الوراثية الكاملة التي حملها والده فحسب، وفي هذه الحالة يكون طبق الأصل عنه[8].

ونظرا لعشق الإنسان لذاته ستحاول الأم إنجاب طفلة تحمل جميع صفاتها الوراثية، وتكون نسخة منها في ولادة ثانية، والأب هنا لا يملك أي دور في عملية الإنجاب وينشأ من الحمل الأول والثاني طفلان لا تربطهم أي علاقة بيولوجية تبين أنهما أخوان، فكيف يصبح هذا الأخ محرما على أخته التي لا تربطه بها أي صلة بيولوجية؟ وهل يمكن في هذه الحالة أن يتزوج الأخ من أخته دون مراعاة لحرمة وتعاليم الأديان والأخلاقيات والقيم الاجتماعية الثابتة؟ وماذا لو زرعت خلية رجل في بويضة ابنته وخلق المولود نسخة من الرجل؟ فهل يكون الطفل المستنسخ الرجل نفسه أو حفيد الرجل أو جد الرجل؟ وما ذا لو تم استنساخ الأموات من خلاياهم المجمدة وجيناتهم المحفوظة في ثلاجات المخابر العلمية؟ ألا

يشكل هذا خطرا على الأسرة؟ وألا يجعلها مجرد أحزاب؟ وكيف يكون حال المجتمع بعد تفكك الأسرة وتمزقها وهدم قدسية الأمومة وقدسية الأبوة؟ كما أن هذا الأمر يؤدي الى الاختلاط في الأنساب وهو الأمر المنهي عنه شرعا.

لقد ألغى الاستنساخ الجسدي سنة الإنجاب من ذكر وأنثى وناقض قوله عزوجل ﴿ **فجعل من الزوجين الذكر والأنثى** ﴾[9] .هذه السنة التي جعلها الله سبحانه وتعالى أساسا للتكاثر بين البشر، فلا زواج ما دام كل فرد قادر على استنساخ نفسه، ومن تنتشر اللا مودة و اللا سكينة و اللا رحمة[10]، ويسود أحد الجنسين على الآخر، فإما زيادة جنس الذكور على جنس الإناث وإما جنس الإناث على جنس الذكور، وقد يتطرقون إلى العزلة إلى درجه أنه لا يختلط جنس الذكور بجنس الإناث نهائيا، وما حاجتهم إلى ذلك ما داموا قادرين على التكاثر لا جنسيا ؟ وفي هذا دعوة للخروج على القوانين الطبيعة.

وأعظم مشكلة أخلاقية تهدد البشرية جراء استنساخ الإنسان هي فصل الإنجاب عن الجنس أولا على مستوى الحيوانات الثدية ثم على مستوى البشر، وهذا مخالف للقيم الدينية الاسلامية يقول عزوجل عز وجل في كتابه الكريم ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا**

ونساء ﴾[11] وقوله تعالى ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾**[12] توضح لنا الآيات القرآنية أن الإنجاب هو إنجاب طبيعي، لذا وجب احترامه أما الطغيان فيه فسيؤدي إلى انهيار منظومة القيم وتعاسة الإنسان.

ب -القضاء على كرامة الإنسان وسلب حريته

هناك مجموعة من الشروط يجب توفرها في الاستنساخ الوراثي حتى لا تهدر كرامة الإنسان، منها ألا تؤدي عملية الاستنساخ إلى هدر حقوق المستنسخ أو كرامته الإنسانية، وتحقيق هذا الأمر في الواقع من الأمور التي يصعب التكهن بها أو ضمانها.

وبين المفكر الجزائري عبد المجيد مزيان* أن الاستنساخ الجيني خالف القيم الاسلامية وخالف الفطرة الإلهية في خلق الإنسان في أنه لكل إنسان شخصيته التي يتميز بها عن غيره، والتي لا يشاركه فيها أي شخص آخر، وإنتاج النسخ المتشابهة وفق التركيب الوراثي يقضي على هذا التمايز الفطري، إذ يصبح الفرد نسخة للآلاف،وأهمية كل فرد تكمن في التفرد بخصائص معينة، فبصمات الأصابع تختلف من شخص إلى آخر، ولا يوجد اثنان من البشر يشتركان فيها إلا في حالات نادرة جدا كالتوأم الحقيقي، وكذلك الحال

في البصمة الجينية والبصمة الصوتية يقول الله تعالى ﴿ **ومن آياته أن خلق السماوات و الأرض و اختلاف ألسنتكم و ألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين** ﴾"[13]".

وهدم الاستنساخ حرية الإنسان واستقلاليته، والاستنساخ العلاجي مس بمنزلة الجنين وبكرامة المرأة المانحة للبويضة، عن طريق عملية توليد الخلايا المستعملة في الدواء والعلاج، وطرح هذا أسئلة هامة هي: هل يمكن خلق أجنة بشرية بغرض غير غرض الإنجاب؟ وهل يمكن معاملة النطفة معاملة الإنسان؟ وكيف يتم تجاوز الوجه التجاري المحض للمشكلة؟ ."[14]"

كما مس الاستنساخ التناسلي كرامة الإنسان وحريته وعارضت تجاربه القواعد والأسس الأخلاقية الطبية، فأمل الحصول على كائن مستنسخ هو مجرد خدعة مبنية على مسلمة علمية خاطئة قائلة بأن الكائن الحي هو حصيلة جيناته الخاصة ولكل شخصية أصول جينية"[15]"، وهذا ما لم تثبته الدراسات العلمية على التوائم، فالتوائم الحقيقية ليست لها نفس الشخصية، وبالتالي فإنه لا يمكن أن يكون للكائن المنسوخ نفس الشخصية ونفس الصفات التي يحملها الكائن المنسوخ عنه، وفي مقابل هذا فإن الشخصية تتأثر بالجسد في جزء منه، وإن أصبح هذا القول حقيقة فإن فكرة الحرية تضيع وتصبح موضع شك، وهذا ما بينه المفكر

المعاصر أكسال كاهن بقوله " إن سلب الجسد سلطته هو أيضا إخضاع للكائن، فكل شيء يشير إلى أن الغيرية البيولوجية الناشئة عن لعبة الإنجاب تشكل سماء ملائما لازدهار غيرية الفرد، وإن الاعتداء على أساس الغيرية البيولوجي هذا هو نفسه مساس بحقوق الطفل جريمة" "[16]". فجسد الإنسان على حد تعبير أكسال كاهن جسد مقدس لا يجوز التلاعب به، ولا يجوز سلب سلطته، لأن سلب هذه السلطة هو إخضاع للكائن وجعل هذا الكائن موضوعا للتجارب، وفي هذا قضاء على كرامة واستقلالية الإنسان.

ومن فوائد الاستنساخ كما سبق وذكرنا إتاحة الفرصة للوالدين لاختيار الصفات الوراثية لأبنائهم " وهذا الاختيار هو النقيض التام للحرية لأنه يحرم الطفل من إمكانية الحرية المستقبلية عندما يشرطه بتشكيل قبلي يسبق حياته الآتية"[17] فالطفل الذي يتعرض لعملية التحسين الجيني لا يتوفر على الحرية وباسم الحرية وجب رفض التحسين الجيني، لأنه يحد من حق الإنسان أن يكون هو نفسه، فاختيارات الوالدان للصفات الوراثية لأبنائهم لن يكون إلا قدرا جديدا يفرض ذاته على الأجيال القادمة.

وترتبط الحرية عند عبد المجيد مزيان بمفهوم الكرامة، وكلا المفهومين يضيع في ظل التقنية الجينية، لأنها تقنية تعمل على تشيئ الأجنة فيتحول الطفل من كونه كائن إلى مجرد شيء مخبري،

وما يجعل الإنسان إنسانا في الحقيقة هو أنه شخص بالمعنى الأخلاقي ويجدي في هذا القول بأن الحق في الإجهاض سيكون مرفوضا، لأننا وقتها لا ننظر في حرية الجنين، وإنما في حرية الشخص الذي ننتجه والذي نكون حريته تحت التهديد، فالجنين إذا بلغ مرحلة نمو معينة منع منعا باتا إسقاطه احتراما منا لكرامته ولحقه في الحياة والكرامة تتأسس على حق الإنسان في الحياة، وعلى الإنسان المستقبلي تحمل تبعات أفعاله واختياراته، هذا ما لا يتحقق في العلاج الجيني، لأن الطفل تحت الطلب تكون كرامته ككرامة الآلة التي نفشل فيها ونحدد حاجاتنا منها."[18]" وفي الأخير يمكن القول بان الإنسان هو إنسان بكرامته وحريته والمساس بهذين الخاصيتين يفقده إنسانيته، والدين الإسلامي كفل كرامة الانسان وحريته، لذا تصدى بضراوة لمثل هذه التلاعبات العلمية.

3 -صيانة النوع الإنساني

منذ بداية الحياة والإنجاب يسير وفق فطرة سليمة فطر الله سبحانه وتعالى جميع المخلوقات عليها بما فيها الإنسان يقول الله تعالى ﴿ **فطرت الله التي فطر الناس عليها**﴾ "[19]"، وتغيير خلق الله من الأمور التي نهى عنها الإسلام، فقد حرم الإسلام مجرد تغيير الجلد بنقش معين، لأنه تغيير لخلق الله، وقد لعن الرسول صلى الله عليه وسلم الواسمة والمستوشمة، الواصلة والمستوصلة،

وحرم كل التقنيات العلمية في مجال التكاثر الجسدي لما يحمله من مفاسد. والاستنساخ البشري هو مساس بخلق الله وتلاعب به، لأنه يمكن الإنسان من إعادة إنتاج نفسه، إنتاج صور طبق الأصل عنه بدون أن تربطه بالجنس الأخر أي علاقة وأي من عدد النسخ التي يريدها بأخذ خلية جسمية ونزع نواتها وزرع نواة بويضة فيها، فينتج إنسان له من الصفات ما لصاحب الخلية الجسمية، فيسمح لإنسان ما أن يرى نفسه وهو يولد من جديد، ويضج العالم بتوائم متطابقة توائم متطابقة في التركيب الجيني ومختلفة في العمر."[20].

والشخص يسعى إلى تخليد نفسه في الأجيال المتعاقبة، غير أن هذا غير متحقق، لأن الشخص المستنسخ إذا تزوج فإن أولاده سيحملون نصف مورثاته وتخليد النفس من الأمور التي تغير مفاهيم الموت و الحياة ، فالخلود صفة من صفات الله سبحانه وتعالى، فهو وحده الكائن الخالد في هذا العالم، وجميع الناس فانون و يقول الله تعالى ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾ "[21]" ، و يقول أيضا ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ "[22]" بالرغم من إقراره في سورة أخرى أن الإنسان يستطيع الخلود في الجنة إذا كانت أفعاله حسنة، ويخلد في النار إذا كانت أفعاله سيئة يقول الله تعالى ﴿ **بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون والذين أمنوا و عملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها**

خالدون ﴿ "[23]"، يختلف الخلود في النار والجنة بالنسبة للبشر عن فكرة الخلود التي قد يحققها استنساخ البشر. وبين عبد المجيد مزيان أن خلافة الإنسان لله في الأرض تقتضي العمل الصالح والعمل الصالح يقتضي الحفاظ على الإنسانية بشتى الوسائل، لذا يجب أن ندعم الأبحاث العلمية التي تفيد الإنسانية، وترتقي بها وليس العكس كما هو الحال في الاستنساخ البشري، فهذه الأبحاث قد تؤدي الى ضياع الأصل البشري بصفة خاصة والحيواني بصفة عامة.

هذا وأكد عمار الطالبي صديق ورفيق عبد المجيد مزيان على أهمية فكر عبد المجيد مزيان وهذا ما يظهر في قوله " ينبغي إعطاء الأهمية لدراسات وفكر وأطروحات المرحوم وضرورة نشرها خدمة للقارئ...من خلال إبراز والتعريف بالفقيد وعرض أطروحاته وأفكاره ووضعها بين يدي القارئ الجزائري"[24].

إن هذه الرؤية الإسلامية تتوافق مع الرؤية المنطقية، ذلك أن الاستنساخ البشري أصبح يغيّر من مفهوم الإنسان وألغى فيه الجوانب الروحية، وبعد أن كان العقل هو الفصل النوعي في مفهوم الإنسان أصبح الجسد في علم الوراثة هو الفصل النوعي، فقد شاع في فلسفتنا العامة أن الإنسان كائن عاقل، ولا يهمنا مظهره الخارجي المهم هو قدرته على الإبداع العقلي، لكن الاستنساخ البشري نقل

العقول والأنظار من هذا الإبداع العقلي الى المظهر الخارجي بحكم أن الاستنساخ البشري يهتم بتحسين الصورة الجمالية الحسية للإنسان، فَعَنْ أبي هُرَيْرة رضي الله عنه قَالَ: قالَ رَسُولُ صلى الله عليه وسلم قال " **إِنَّ الله لا يَنْظُرُ إِلى أَجْسامِكُم، وَلا إِلى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ** " رواه مسلم.

ويمكن القول أن الإسلام استطاع أن يبين رهانات العلم المطلوبة فأراد للعلم أن يكون سلاحا للإنسان لا عليه، وخادما له لا مدمرا للبشرية.

4/موقف الشريعة من الاستنساخ[25]

تكاد تتفق وجهة نظر علماء الإسلام على حظر عمليات الاستنساخ إذ هي تمثل تلاعب بمعايير الخلق وناموس الحياة، وهو تلاعب لا طائل من ورائه سوى تحقيق بعض المؤسسات الصحية المتخصصة مكاسب مادية أو شهرة زائفة.

وقد وصفها البعض بأنها أكبر فساد في الأرض، وبأنه يجب أن يطبق على هؤلاء العلماء جزاء الحرابة وهو تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو إعدامهم ، ورأى البعض الآخر أن ما يحدث من تغيير لخلق الله مرفوض دينياً، والقرآن الكريم يؤكد أن هذا التفكير يكون مصدره وساوس الشيطان ، والاستنساخ هو لون من ألوان التلاعب بهندسة الجينات ومعايير الموروثات ومن المعلوم أن القرآن نبه إلى

أن البيئة المناخية والاجتماعية والوراثية مركبة تركيباً كيميائياً وإحيائياً دقيقاً، وأنه لا يجوز للإنسان التلاعب بمعاييرها، والله سبحانه أحسن كل شيء خلقه، فتخصيص الإنسان في مواضع قرآنية عديدة بحسن التركيب وحسن التقويم وحسن التعديل فيه فضل وعناية بهذا المخلوق .

وقد عقدت في يوليو/تموز وأغسطس/آب 1998 ندوتان في مصر من قبل المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية عن الاستنساخ في رؤية الفقهاء وسلسلة دراسات إسلامية، وكان هناك إجماع من الفقهاء المشاركين على تحريم الاستنساخ البشري لكونه عبثاً بالبشرية وسيؤدي إلى فسادها، ولأنه يخالف المنهج الإلهي في الخلق ولأنه يؤدي إلى اختلاط الأنساب وانهيار الأسرة، ولأن مفاسده على الإجمال أكثر من مصالحة التي تعود من ورائه إن كان هناك مصالح الى أنه يجب التنويه إلى أن الاستنساخ يمكن أن يتخذ أربع صور ثلاث منها تحدث دون وجود حيوان منوي من الذكر والرابعة لا تستغني عن الحيوان المنوي وهي كالتالي :

الصورة الأولى :أن تكون النواة الموضوعة بدلاً من النواة المنزوعة من بيضة الأنثى هي نواة من خلية أنثى غيرها.

الصورة الثانية :أن تكون النواة الموضوعة هي نواة من خلية الأنثى نفسها.

الصورة الثالثة :أن تكون النواة الموضوعة هي نواة من خلية ذكر.

الصورة الرابعة :أن يتم في المختبر تخصيب البيضة بالحيوان المنوي.

فالصورة الأولى والثانية حرام شرعاً. أما الصورة الثالثة هي أن تكون النواة الموضوعة هي نواة من خلية ذكر فالحكم الشرعي فيه تفصيل:

لأنه أما أن تكون النواة المستجلبة مأخوذة من رجل، أو من غير الإنسان من ذكور الحيوانات، والرجل أما أن يكون زوجاً لهذه المرأة أو غير زوج لها.

فإذا كانت النواة من غير الإنسان من ذكور الحيوانات فلا شك في تحريم هذا العمل، وكذلك إذا كانت النواة مأخوذة من رجل غير الزوج فلا شك أيضاً في التحريم.

أما إذا كانت الخلية مأخوذة من زوجها فالأمر يحتمل الجواز وإن كان الرأي الصائب التوقف حتى نرى ما تسفر عنه مثل هذه الحالات، والحال التي سيكون عليها الولد وهل سيكون إنساناً طبيعي الخلقة والسلوك والتفاعل الصحي من حوله وما حوله أم لا؟.

أما الصورة الرابعة وهي التي يتم فيها تخصيب البويضة بالحيوان المنوي في المختبر فالأصوب هو التريث والتوقف في الحكم كما أنه لابد من الرجوع إلى أساتذة علم الاجتماع والطب والقانون وغيرهم

حتى نحكم في النهاية بأن الوليد لن يكون معرضاً للتشويه التكويني والسلوكي ولن يسبب مشاكل اجتماعية نتيجة وجود أفراد تتشابه في الشكل تشابها تاما وفي المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسنة كانت هناك فتاوى مفصلة للفقهاء في الاستنساخ *

5/ تحديد جنس الجنين

المقصود بتحديد جنس الجنين هو ما يقوم به الإنسان من الأعمال، والإجراءات التي يهدف من خلالها اختيار ذكورة الجنين أو أنوثته، وبهذا التعريف لعملية تحديد جنس الجنين يتبين أنها ليست قضية حادثة، بل هي مسألة تضرب بجذورها في القدم. وقد أشغلتِ الناس منذ سالف الزمن، ففي سنة خمسمائة قبل الميلاد توصلت مدارس الطب الهندية إلى أنه يمكن التأثير على جنس الجنين في بعض الحالات بفعل الطعام أو العقاقير كما ذكر بعض المؤرخين[27]. كما ذكروا أيضًا أن علماء الطبيعة كأرسطو قد تناولوا قضية تحديد جنس الجنين بالمناقشة في القرن الثاني الميلادي، حيث ناقش أرسطو النظرية التي تقول: إن جنس الجنين تُعَيّنه حرارة الرحم أو تغلُّب أحد عنصري التكاثر على العنصر الآخر وقدم نظرية أخرى في تفسير ذلك[28].

ومن هذا يتبين أن الجديد في قضية تحديد جنس الجنين إنما هو فيما طرأ من تقدم في الوسائل والطرق التي من خلالها يمكن

تحديد جنس الجنين سواء أكان ذكرًا أم أنثى، وقبل النظر في الوسائل والطرق التي تستعمل في تحديد جنس الجنين وأحكامها نحتاج إلى بيان الأصل في تحديد جنس الجنين، ويمكن القول أن علماء الإسلام انقسموا في موقفهم إلى قسمين:

القسم الأول: يقول بأن الأصل في العمل على تحديد جنس الجنين الجواز وأنه لا مانع منه شرعًا[29]، ومن أبرز الفقهاء القائلين بهذا الشيخ عبد الله البسام، والشيخ مصطفى الزرقا، والدكتور يوسف القرضاوي، والشيخ عبد الله بن بيّة، والشيخ نصر فريد، والدكتور علي جمعة وغيرهم.

القسم الثاني: يقول بأن أن العمل على تحديد جنس الجنين لا يجوز ومن أبرز من قال بذلك الدكتور محمد النتشة[30]، والدكتور عبد الناصر أبو البصل، والشيخ فيصل مولوي[31].

وهو ما يفهم من فتوى اللجنة الدائمة للإفتاء بالسعودية حيث جاء في فتوًى للجنة (شأن الأجنة من حيث إيجادهم في الأرحام وذكورتهم وأنوثتهم هو من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى[32].

وبعض النظر عن الجانب الفقهي فإن اختيار جنس الولد سيأتي على إنهاء الأنثى فالكثير من التقارير تقول أن أغلب من اقتنى تقنية تحديد جنس الولد اختار الذكر، وهذا في الحقيقة وأد للأنثى

واحتقار لها لكنه وأد معنوي وليس وأد مادي، وهذا ما نهى عنه الإسلام يقول عزوجل ﴿**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**﴾ سورة التكوير الآيتين 9،8

هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن الإسلام لا يفرق بين رجل أو امرأة، وحارب ظاهرة التمييز بينهما يقول عزوجل﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ**﴾ سورة النحل الآية 58.

والمولى عزوجل لم يفرق بين الرجل والمرأة حتى في درجة الإيمان بل إن الله سبحانه وتعالى ضرب لنا مثالا عن الإيمان بالمرأة يقول المولى تبارك وتعالى﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ سورة التحريم الآيتين 12،11

والإسلام في منظومة قيمه لا يجد ضرورة لأبحاث علمية تهدف إلى اقتناء جنس المولود، والكثير من الثقافات الغربية كانت تتغنى بحرية المرأة والمساواة بينها وبين الرجل، لكنها حين امتلكت الوسيلة لوأد المرأة لم تتوارى عن وأدها، وقد نادى الكثير من العلماء والمفكرين الغربيين بضرورة العودة إلى القيم الإسلامية من أجل حماية المرأة من التلاعبات والممارسات الغربية ومن بينهم جوستاف لبون يقول في ذلك " **إن الإسلام قد أثر تأثيرا حسنا في رفع**

مقام المرأة أكثر بكثير من قوانيننا الأوروبية، وخير طريقة لتقدير التأثير الذي أحدثه الإسلام في رفع مقام المرأة في الشرق - يقصد المناطق الإسلامية وخاصة العالم العربي - أن نبحث عما كان عليه حالها قبل القرآن"[33]. ولهذا أكد روجي غارودي على الإسلام هو دين المستقبل لما يحتويه من قيم إنسانية في جميع المجالات بما في ذلك المجال البيوتيقا.

الهوامش

*- عبد المجيد مزيان (مواليد 17 مارس 1926 وتوفي في 15 جانفي 2001) ، هو مفكر وسياسي جزائري . وكان رئيس جامعة الجزائر ، وزير الثقافة ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى. وساهم في تأسيس الإذاعة الجزائرية. وأخيراً تم تعيينه أميناً عاماً فيما بعد أصبح رئيس جامعة الجزائر ووزير الثقافة. أنهى حياته المهنية على رأس المجلس الإسلامي الأعلى، الذي ترأسه حتى وفاته في 15 يناير .2001

1. عبد المحسن صالح : التنبؤ العلمي و مستقبل الإنسان ، ط 2 ، مطابع دار القبس الكويت ، 1984 ، ص 49

2- الدراجي زروخي : إشكاليات أساسية مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية ، ط1 دار صبحي للنشر غرداية . الجزائر ، 2013 . ص 222

3. سوزان الدريدج: إلى من ستؤول ملكية جسدك ، الثقافة العالمية ، ص99

4. ناهد البقصمي : الهندسة الوراثية و الأخلاق ، سلسلة عالم المعرفة، ص 206

5 – سورة الروم الآية21

6- نقلا عن: دافيد رورفيك، تناسخ الأجساد (قصة استنساخ كائن بشري) ، ترجمة ديكران صجبخيا، دار الحكمة للطباعة و النشر ، ط 2 ، دمشق ، 1995 ، ص 57 .

7- عبد الهادي مصباح : الاستنساخ بين العلم و الدين ، الدار المصرية اللبنانية ، ط 1 مصر 1997 ، ص.43.

8-المرجع نفسه ، ص 42 .

9- سورة القيامة، الآية .39

10- كارم السيد غنيم : الاستنساخ بين تجريب العلماء و تشريع السماء ، دار الفكر العربي ط1 ،القاهرة ، 1997 ، ص140 .

11- سورة النساء، الآية 1 .

12- سورة المؤمنون، الآيات 12-13-14 .

13- سورة الروم ، الآية 22 .

14- رجاء سلامة و آخرون: البيوطيقا ، دار بتر للنشر و التوزيع ،ط 1 ، سوريا ، 2010 ص 210 -211 .

15- /http://www.z-dz.com/z/about_us.html.. pm : 10:22. 22.02.2014

16- نقلا عن رجاء سلامة و آخرون : البيوطيقا ، ص 214 .

17- المرجع نفسه ، ص101 .

18- Minoune78@gmail.com. pm : 10:22. 22.02.2014

19- سورة الروم ، الآية 30 .

20- عارف علي عارف: رؤية إسلامية لعلم الهندسة الوراثية وعلم الاستنساخ البشري ،مجلة فكرية يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ماليزيا ، العدد 13 ، 1998 ، ص 121 .

21- سورة آل عمران ، الآية 185 .

22- سورة القصص ، الآية 88 .

23- سورة البقرة ، الآية 81-82 .

24- /http://www.z-dz.com/z/about_us.html .pm : 10:22. 22.02.2014

25- رضا عبد الحليم عبد المجيد، الحماية القانونية للجين البشري "الاستنساخ وتداعياته" دراسة ، مقارنة، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، 2001. ص 269 ومابعدها.

26- الشيخ عبد الله البسام عضو هيئة كبار العلماء وعضو المجمع الفقهي ب رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة يقول "أن استنساخ البشر محرم شرعاً ولا يجوز بأي حال إذ انه يؤدي إلى اختلاط الأنساب وهذه الأفعال تؤدي إلى ضياع الأمم وزوالها بسبب سوء أخلاقها ومعاصيها لله سبحانه ولابد من قتل هذه التجارب في مهدها قبل أن تستفحل".

أما الشيخ محمد الغزالي يرحمه الله يقول "إذا تمت الاستجابة لأهواء الناس وجرى تسخير الطب لما تشتهي الأهواء فإن هذا نذير بهلاك العالم. إن اللعب بالجينات والتجارب على الأجنة تعد تغيير في خلق الله وهو عمل محرم وأناشد العالم الذي يجري وراء الهندسة الوراثية أن يتقن هندسة الأخلاق". والشيخ القرضاوي يقول "نرحب بالعلم في خدمة الإيمان والأخلاق والقيم وبما يفيد البشرية ولا يتسبب في إفسادها ولا يدمر ولا يخرب كما حدث مع الأسلحة النووية والكيماوية والجرثومية ولا مانع من الاستفادة من هذه التقنية= =بما يعود على البشرية بالنفع

والقاعد الشرعية "سد الذرائع" وهو ترك المباح خوفاً من أن يؤدي إلى أمور منكرة. فالاستنساخ يؤدي إلى اختفاء الأسرة وإفساد المجتمع وجعل الله الزواج أساس الحياة، ويتم التساؤل أين يتربى الطفل المستنسخ في غير عالم الأسرة أبوه وأمه؟

27- قصة الحضارة. تأليف لديوارنت، ترجمة: محمد بدران، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية.(ج2/ص 447).

28- كيف تختار جنس مولودك للدكتور لاندروم والدكتور دافيد ص57-73.

29- المسائل الطبية المستجدة في ضوء الشريعة. للدكتور محمد بن عبدالجواد النتشة، سلسة إصدارات مجلة الحكمة، الطبعة الأولى، 1422هـ (ج1/ص228) .

30- المسائل الطبية المستجدة (ج1/ص234،232) .

31- اختيار جنس الجنين دراسة فقهية طبية. للدكتور عبدالرشيد قاسم، مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، 1424هـ ص 72-73.

32- المرجع نفسه ص 74.

33- نقلا عن كمال عبد المنعم خليل: الأسرة المسلمة والتغريب، مجلة الرابطة، العدد 421، مكة المكرمة، ص34

سابعا / عالمية الفقه الإسلامي وأثره في القوانين الغربية

" عندما يريد الرجال المفكرون ان يلجأوا الى دين يحمي الفضيلة ويقي المجتمع ويكون سببا في الحياة السعيدة في البشر سيجدون الإسلام هو الدين الوحيد الذي يضمن لهم ذلك مع التقدم والنجاح، إن الإسلام هو الدين الذي تجد فيه حسنات الأديان كلها ولا تجد في الأديان كلها حسناته ومن الممكن أن يصل الرجل إلى أعلى درجة في الفلسفة والعلوم ويكن مع ذلك مسلما تقيا"

برنارد شو

سابعا / عالمية الفقه الإسلامي و أثره في القوانين الغربية

كانت الدول الغربية تعيش عصراً مظلماً متأخراً كله عنف واستبداد سياسي، والغلبة فيه للقوي على حساب الضعيف وانتشرت فيه كل أنواع الظلم والقهر، وجاء الفقه الإسلامي ليسلط ضوء الرقي على الفكر القانوني الغربي الذي افتقد إلى كل مسلمات المواطنة ومتطلبات المجتمع المدني -على حد اعترافات المفكر الفرنسي جون جاك روسو-وذلك من خلال الأثر الذي تركه الفقه الإسلامي في القوانين الغربية.

1/ وقائع تؤرخ لأثر الفقه الإسلامي[1]

لقد وصل تقليد الشعوب العربية للدول الأوربية درجة الاعتقاد شبه الكامل أن هذه الدول هي مصدر الحضارة والرقي، ونحن بدورنا نريد أن نكشف الغطاء على حقيقة يخفيها المؤرخون وهي أن الدول الغربية كانت تعيش عصراً مظلماً متأخراً وجاء الفقه الإسلامي ليسهم في ترقية الفكر القانوني الغربي ويظهر ذلك في وقائع تاريخية نذكر منها

أ-أن المذهب المالكي بدأ تطبيقه في الأندلس منذ (711م/93هـ) أدخله زياد بن عبد الرحمن القرطبي وبقي مستخدما في أوروبا حتى (1492م/ 977هـ) أي لمدة 700 سنة.

2ب-طوال 700 سنة كان الأوربيون يرسلون طلابهم إلى الدول الإسلامية التي امتدت حروبها حتى شملت جنوب فرنسا ومدن مثل ليون كانوا يرسلونهم لأخذ العلم، وقد تبوأ الفقه الإسلامي مكانة دفع بعض الرجال الحكم إلى إنشاء مجلس استشاري من العلماء المسلمين كما هو الحال مع وليام الثاني (1116م/1184م)، بل وكما أن بعضاً من الناس في يومنا نراهم يتكلمون اللغة الفرنسية والإنجليزية فيما بينهم، فإننا نقول إن تأثير الحضارة الإسلامية على الدول الأوروبية في القرون السابقة جعلت بعض الملوك يكتبون مراسيمهم باللغة العربية.

وقد انتشرت أحكام الفقه الإسلامي في كافة أنحاء أوروبا على إثر السنوات 700 التي أمضاها المسلمون في هذه القارة، وحتى بعد مغادرة المسلمون لهذه القارة فإنّ أحكام الفقه الإسلامي ظلت مطبقة من طرف الأوروبيون كون أن تنشئتهم كانت عليها فأضحت أعرافاً وتقاليد، بل حتى بعد خروج المسلمون من غرناطة بقي التأثير مستمراً.

ولنذهب معاً إلى أواخر القرن (18) الثامن عشر غزا نابليون بونابرت المغرب العربي، وهناك تعرف على الفقه المالكي وعند عودته إلى فرنسا وضع القانون المدني الفرنسي في العام 1804م، وهذا القانون مأخوذ 90% من المذهب المالكي، وهذا الرقم ليس

عشوائياً بل نتيجة دراسة مقارنة بينهما، وكما أن التأثير وصل إلى دولة المجر التي حكم العثمانيون جزء منها لمدة 150 سنة.

وهذه أمثلة على المسائل التي أخذها القانون الأوروبي من الفقه الإسلامي

. الرضائية في العقود أي أن العقد ينشأ بإيجاب وقبول.

. سن البلوغ 18 سنة.

. الأوراق التجارية لا سيما الشيك.

. عقد الرهن.

. عقد المزارعة.

. الشركة المحدودة المسؤولية.

. القانون البحري الإسلامي: هو مصدر القانون البحري المعاصر ايجار السفينة، سنة الشحن، مسؤولية الناقل في حالة التلف الناتج عن قوة قاهرة.

ما تم ذكره لا يجهله المؤرخون الغربيون، فمحكمة العدل الدولية اعتبرت في حكمها الصادر بتاريخ 1958/8/23 أن أحكام الشريعة هي احدى الأنظمة القانونية في المجتمع.

وأضاف الغربيون واستكشفوا أمورا عجز عن إيجادها حتى المسلمون أنفسهم مثل: العولمة، الأخلاق، التسامح. لكن الأرضية الأولى كانت الفقه الإسلامي.

2-دراسات تؤرخ للفلسفة العربية الاسلامية

إنّ أصول الفقه فلسفة إسلامية أصيلة، فقد شاع القول في ربوع القرن التاسع عشر أن الفلسفة اليونانية هي أساس الفلسفة الإسلامية كما يشيع في عصرنا وتم حصر دائرة الفلسفة الإسلامية في علم المنطق، وبين بعض المستشرقين أن الفلسفة الإسلامية نتجت من اتصال بعض الفلاسفة المسلمين أمثال الكندي وابن رشد وابن سينا (الطائفة التي عرفت بفلاسفة الإسلام) بالفكر اليوناني وهذه مغالطة فندها المؤرخون المستشرقون كما فندها بعض المفكرين العرب ومنهم علي سامي النشار وهذا ما يظهر في كتابه (تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام) إذ بين فيه أن هذا المنهج يحدد تاريخ الفلسفة الإسلامية بإثقال العلم اليوناني فلسفياً كان أو غير فلسفي إلى العالم الإسلامي خلال حركة الترجمة المشهورة في العصر العباسي الثاني، وينفي هذه الدعوى برؤية يقدمها الشيخ مصطفى عبد الرزاق في أوائل الأربعينيات التي قامت على تلمس نشأة التفكير الفلسفي الإسلامي في كتابات المسلمين أنفسهم في فترة قبل أن يتصلوا بالفلسفة اليونانية وقبل أن يتدارسوها دراسةً وافية.

وقد وصف سامي النشار هذه الرؤية بأنها تقرر ما كان لدى المسلمين من تفكير خالص صدر من عقولهم وهو تفكير نسقي كان لهم فيه أيضاً حظ الابتكار[2]، وهذه الرؤية وجهت أنظار الباحثين إلى

ناحية جديدة في التفكير الاسلامي اعتبرها بعض الباحثين بعد ذلك الناحية المعبرة عن الحضارة الإسلامية كلها وهي نظرة قال بها فلاسفة الإسلام أنفسهم حيث نجد ابن رشد الذي اشتغل بعلم الفقه وعلم أصول الفقه وترك فيه مؤلفات مشهورة بقيمتها العرفية والشرعية (بداية المجتهد ونهاية المقتصد، كتابه الضروري في علم أصول الفقه) ويرى أن علوم الشرع ليست مجرد علوماً بقيمتها المعرفية، وليست مجرد علوماً تهتم بالتشريع بل هي أكثر من ذلك هي دستور ينظم الفكر والحياة في آن واحد.

من خلال هذه الرؤية يظهر أن علم أصول الفقه يتصل بالفلسفة الإسلامية مباشرة أكثر من غيره في العلوم والطرق الفكرية، يقول مصطفى عبد الرزاق "وعندي أنه إذا كان لعلم الكلام ولعلم التصوف من الصلة بالفلسفة ما يسوغ جعل اللفظ شامل لهما، فإنّ علم أصول الفقه المسمى أيضاً علم أصول الأحكام ليس ضعيف الصلة بالفلسفة، ومباحث أصول الفقه تكاد تكون في جملتها من جنس المباحث التي يتناولها علم أصول الفقه العقائد الذي هو علم الكلام"[3].

إذن يتبين أن علم أصول الفقه كان بالنسبة للمسلمين بمثابة قانون وفلسفة في التشريع يحرر عقولهم من الجمود ويعززها ويدفعها إلى التفكير والاجتهاد.

وهذه الأدلة من الاجتهاد يصورها كل من ابن عبد البر والجويني في البرهان، وابن حزم وابن القيم، ولا ننسى الوقائع التاريخية في القضايا الكبرى التي غيرت مجرى التاريخ وصنفت تباعاً على أنها من قبيل الاجماع حسب المصالح المتعارف عليه بعد ذلك.

ولا ننسى أن الشافعي هو مؤسس الفقه الإسلامي، ومن نتائج هذه الجهود المتعاقبة في فقه الاستنباط لدى الرعيل الأول ودون اتصاله بالفلسفة اليونانية، ووضع الإمام الشافعي علم أصول الفقه كمادة علمية مستقلة في مصنف خاص، وكان القصد من وراء ذلك رسم مناهج البحث والاستنباط وكان هذا سببا في وصف مترجميه فيما بعد بفيلسوف الفقه[4].

وكان الناس قبل الإمام الشافعي يتكلمون في مسائل الفقه ويعترضون ويستدلون، لكن كان لهم قانون كلي يرجعون إليه في معرفة الدلائل الشرعية، فاستنبط الشافعي علم أصول الفقه ووضع للخلق قانوناً كلياً وهو بمثابة فلسفة في فهم الشرع وحل مشكلات العصر، وهي فلسفة تعكس روح التفلسف والنظر العقلي الحر في الفهم العقلي للدّين ولمقاصده التشريعية، هنا لم يكن الشافعي بحاجة لا إلى أرسطو ولا إلى فلاسفة الإغريق في نسج مبادئه العلمية والشرعية، بل كان يهتدي بخطى الشارع وأصحابه ومن تبعهم من التابعين في استنباطهم للأحكام الشرعية.

ومنه يمكن القول بأن علماء الفقه وأصول الفقه وعلى رأسهم الشافعي كانوا فلاسفة حق، لكنهم كانوا فلاسفة في ميدانهم الخاص فثبت أن نسبة الشافعي إلى علم أصول الفقه كنسبة أرسطو طاليس إلى علم المنطق.

3 -مكانة الفقه الإسلامي بين النظم القانونية الغربية

احتل الفقه الإسلامي بين النظم القانونية الغربية مكانة هامة بل هو بمثابة جوهرة التي تضيء القوانين الغربية بأحكامه وأسسه وقواعده، إنّه منهج حياة، هذا ما جعل الغربيون يعترفون به كمصدر عالمي للتشريع وللقانون، بل حتى أقلام المفكرين الغربيين القانونيين أبت إلاّ أن تكتب وتصور عظمة الفقه الإسلامي.

. الاعتراف بالشريعة الإسلامية كمصير عالمي للتشريع والقانون

قد تنبه علماء القانون في الغرب لعظمة الشريعة الإسلامية ومعرفتها الدقيقة بحاجات المجتمعات منذ وقت بعيد وتلبيتها في ذات الوقت وتوالت كتاباتهم وقلت صيحاتهم للإشادة بالقوانين المستمدة من الإسلام، فقد تم الاعتراف بالشريعة الإسلامية كمصدر عالمي للتشريع والقانون في عديد من المؤتمرات الدولية العلمية منذ 1932م منها

- القانون المقارن لاهاي عام 1932م.
- مؤتمر لاهاي المنعقد في عام 1937م.

- مؤتمر القانون المقارن في لاهاي عام 1998م.
- المؤتمر الدولي عام 1945 بواشنطن.
- شعبة الحقوق بالمجمع الدولي للقانون المقارن 1951م بباريس.

وقد صدرت عن هذه المؤتمرات قرارات هامة نذكر منها

. اعتبار التشريع الإسلامي مصدراً رابعاً لمقارنة الشرائع.

. إنّ الشريعة الإسلامية قائمة بذاتها لا تمت إلى القانون الرّوماني أو إلى أي شريعة أخرى وصلاحية الفقه الاسلامي لجميع الأزمنة.

. تمثل الشريعة الإسلامية في القضاء الدولي ومحكمة العدل الدولية.

ولعل أبرز دليل على ظاهر التقدير الكبير الذي بدأ يسود بين فقهاء أوروبا وأمريكيا في العصر الحاضر إشارة الفقيه الفرنسي لامبير إلى ذلك بين فهو يقر بأنه لا يرجع إلى الشريعة يقصد (الشريعة الإسلامية) ليثبت صحة ما يقول، ففي هذه الشريعة عناصر لو تولتها الصياغة فأحسنت صياغتها لصنعت منها نظريات ومبادئ لا تقل في الرقي والشمول وفي مسايرة التطور عن أخطر النظريات الفقهية التي تتلقاها عن الفقه الغربي اليوم، وفي مقدمة هذا نظرية التعسف في استعمال الحق ونظرية الظروف الطارئة ونظرية عمل التبعية ومسؤولية عدم التمييز، فإن كل هذه النظريات أساساً من الشريعة الإسلامية لا تحتاج إلى الصياغة والبناء، وقد أقر جوستاف

ليون في كتابه حضارة العرب بفضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية (كان تأثير العرب يقصد المسلمون في الغرب عظيماً وإليهم يرجع الفضل في حضارة أوروبا). زيادة إلى ما سبق فإنّ هناك الكثير من فقهاء الغرب أقروا بفضل الإسلام على القانون الدولي العام، ومنهم. فيتو ريا وسوارس والبارون مشيل دي توب أستاذ القانون الدولي بمعهد الدراسات بلاهاي بهولندا، حيث ذكر الكثير من القواعد والأحكام سبق الإسلام بها القانون الدولي وعلى الأخص في نظم الحرب، وأورد وصية أبي بحر لجنوده، وذلك في الجزء الأول من مجموعة دراسات سنة 1926م للأكاديمية القانون الدولي، كما أورد الأوامر التي أصدرها في قرطبة الخليفة الحاكم بن عبد الرحمن في هذا الشأن سنة 963م، أي قبل أن تعمل الكنيسة البابوية للسلام، ومنهم أيضاً المؤرخ (سيديو) في كتابه تاريخ العرب حيث حدد الكثير من فضل الإسلام على الحضارة الغربية، وعلى الأخص في القانون الدولي، وعدد ما ذكره البارون "دي توب" وأضاف وهذه هي مختلف القواعد الشرعية الإسلامية التي عمل بها لتخفيف وطأة الحروب من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر للميلاد، فهي إذن أسبق بأمد طويل على الأفكار والمبادئ القانونية المماثلة، والتي بدأت تشق طريقها من خلال القرن الثالث عشر مما يدل على أثر وتواجد القواعد الإسلامية في القانون الدولي الأوروبي[5].

ومما يدل على أسبقية وأفضلية الشريعة الإسلامية في مجال القانون الدولي عامة والقانون الدولي الإنساني خاصة أن الفقيه المسلم محمد بن الحسن الشيباني أعتبر المؤسس الأول لعلم "قانون الحرب" أي القانون الدولي الإنساني[6]، وتكريماً له فقد أنشئت في ألمانيا جمعية باسمه.

وقد أفاض فقهاء الشريعة الإسلامية في كتب السير وكتب الجهاد في شرح وبيان قواعد، وأحكام القانون الدولي الإنساني الواردة في القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، والسيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدون ومن تبعهم وسار على نهجهم، فأول هذه القواعد حماية النفس الإنسانية أو حق الحياة، فالإسلام هو الشريعة الوحيدة التي أكدت بما لا يدع مجالاً للشك أهمية هذا الحق، فقد حرص الإسلام على حفظ النفس الإنسانية وحماها دون غيره من الملل والنحل والقوانين فقد قال الله تعالى في كتابه الكريم ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ** ﴾ سورة المائدة الآية32

وفي آية أخرى جعل من صفات عبد الله الصالحين انهم لا يقتلون النفس وهذا في قوله تعالى﴿ **وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا**

آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾سورة الفرقان الآية .68

4/التشريع الإسلامي بأحكام قانونيين ومفكرين غربيين

يقول عز وجل في كتابه الكريم ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ سورة المائدة الآية 48، هذه الآية تبين خصائص القانون الإسلامي، ولكل قانون طبيعته وسماته وخصائصه التي تميزه عن غيره من القوانين، وهذه السّمات والخصائص تستمد بصفة أصلية من عنصرين:

الأول: شخصية واضعيه والعوامل النفسية والاجتماعية التي تؤثر في سلوكهم، أي القانون يكون حسب واضعيه ومختلف العوامل المؤثرة في ذلك.

والثاني: طبيعة المجتمع الذي ينظم القانون، العلاقة بين أفراده، ويوضع لحفظ أمنه ورعاية مصالحه أي القانون يكون مرآة لطبيعة المجتمع المنظم له.

ومهما ارتقى القانون فإنه لن يكون حلاً أو علاجاً إلاّ بأثر محدود أو فترة معينة، لأن القانون في النهاية موضوع بأيدي بشر، بل إنّ تشكيلته منوطة بعقول البشر القاصرة كل حسب رأيه وهواه وبأفهامهم فقد تتعرض آرائهم لتسلط الهوى، وقد تكون فهومهم محدودة، وهنا تبرز مكانة التشريع الإسلامي الذي هو من صنع خالق البشر الأعلم بأحوالهم، وما فيه صلاحهم وأدرى وأعلم بما تؤول إليه عاقبة أمرهم.

وهذا ما يجعل هذا التشريع ضرباً فريداً معجزاً من التشريعات والقوانين التي لم تعرفها البشرية من قبل ولن تعرفها بعد، إذ لا تتحكم في سنها الآراء ولا تعبث في وجهتها الأهواء.

والجدير بالذكر أنّ هذه الشريعة الإسلامية تجلت في قواعد جوهرية نذكر منها:

- الأسس التي قامت عليها.

- المقاصد والغايات التي استهدفتها لتحقيق العدالة المطلقة بين الناس.

- المصادر المتنوعة التي استمدت أحكامها منها متمثلة في القرآن والسنة فالإجماع والقياس والمصالح المرسلة والاستصحاب وسد الذرائع والعرف.

-الأحكام التي جاءت بها سواءً في القرآن والسنة مباشرة أو ما أستشهد منها باستعمال أصول الفقه وضوابطه وقواعده الكلية والجزئية التي وضعها الفقهاء المسلمون، مستلهمين الحلول من سوابقهم وسوابق أسلافهم والأنبياء والنظائر، وإذا لم يجدوا في كتاب الله تبارك وتعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم بغيتهم، وقد اجتهدوا في ذلك أيما اجتهاد وصنفوا في أصول التقاضي والأحكام والدعاوى ما عجزت سائر الأمم في الإتيان بمثله، بل سبقوا إلى تأصيل النظريات القانونية التي يفاخر القانونيون المعاصرون بتأصيلها وذكرها في كتبهم، وبلغ بهم الشأن العظيم أن كانوا مرجعاً للأوروبيين في المسائل الحقوقية والمعضلات القانونية بحثاً عن كلمة الفضل لدى المسلمين، وفي بينه الأستاذ علي حيدر -رحمه الله- وزير العدلية في الدولة العثمانية والأستاذ بكلية الحقوق ورئيس محكمة النقض وأمين الفتيا بدار الاستفتاء أن بعض الحلول اعتمدت من قبل دول أوروبا في بعض المسائل الغامضة من الشريعة الاسلامية[7].

وقد انتبه فقهاء وفلاسفة القانون العالمي المعاصر إلى إعجاز التشريع الإسلامي فنضحت مؤلفاتهم بانبهارهم وصرحوا في مؤتمراتهم بعلو كعب الشريعة في المجال التشريعي والإقرار بأنها السبيل لخلاص البشرية البائسة من ويلات القانون الوضعي وتبعاته

المجحفة يقول برنارد تشو "**الإسلام هو دين الديموقراطية وحرية الفكر وهو دين العقلاء وليس فيما أعرف من الأديان نظام إجماعي صالح كالنظام الذي يقوم على القوانين والتقاليد الإسلامية، فالإسلام هو الدين الوحيد الذي يبدو لي أن له طاقة هائلة لملائمة أوجه الحياة المتغيرة وهو صالح لكل العصور... لا بدّ أن تعتنق الإمبراطورية البريطانية النظم الإسلامية قبل نهاية هذا القرن، ولو أن محمداً بعث في هذا العصر، وكان له التحكم في هذا العالم الحديث لنجح تماماً في حل جميع المشاكل العالمية وقاد العالم إلى السعادة والسلام**"[8].

كل ما ذكره برنارد شو في قوله هذا عن الإسلام يلخص مطالب المجتمعات المدنية الحضارية المتقدمة، وهو ما يعكس قوة وصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، واحتوائه على كل ما تنادي به فلسفة المواطنة اليوم من عدالة ومساواة.

ويقول المستشرق الانجليزي البروفيسور (نويل ج كولسون) أستاذ الفقه الإسلامي بجامعة لندن "ويصح النظر إلى الشريعة نظام قانوني متطور ويتميز هذا النوع من القوانين السماوية عند مقارنتها بالقوانين المعتمدة على: العقل الإنساني بخاصيتين أساسيتين:

أولهما: إنه ثابت لا يتبدل ومنه فإن معاييره ثابتة ثبوتاً مطلقاً وليس لأي سلطة قانونية حق تغييرها.

ثانيهما: أنّ الشريعة الإسلامية المنزلة تمثل السمت الموجود لجميع الشعوب على حين أن الاختلاف سيكون هو النتيجة الحتمية لقوانين من العقل الإنساني المتأثر بالظروف المحلية الخاصة والمعبر عن احتياجات مجتمع معين"[9]. ويقصد بالسمت هنا الطريق الواضح الجلي لجميع الشعوب التي تبحث عن العدالة.

ووضح المفكر الفرنسي الشهير ايتان رينيه (1861- 1929م) في كتابه (محمد رسول الله) صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان مهما بلغت درجة التحضر والرقي ولقد أكد الإسلام منذ الساعة الأولى لظهوره أنه دين صالح لكل زمان ومكان، إذ هو دين الفطرة، والفطرة لا تختلف في إنسان عن آخر، وهو لهذا صالح لكل درجة من درجات الحضارة، بل إنّ التشريع الإسلامي لا تبرز خصائصه العلمية إلاّ حيث يرتقي بالإنسان ولنا في تراث المسلمين الفقهي الغزير وفي نشوء عشرات المدارس الفقهية في التاريخ الإسلامي حيث اتسعت رفعة العالم الإسلامي. وفي كلية القانون في جامعة هارفارد أشهر الجامعات الأمريكية والعالمية على الإطلاق وضعت الآية رقم 134 من سورة النساء على حائط المدخل الرئيسي للآية موصوفة بأنها من أعظم عبارات العدالة في العالم عبر الأزمان، والآية المعنية هي

قول الله عز وجل﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾ سورة النساء الآية 135 "[10] .

وهذا خير شاهد ودليل على ذلك حيث كانت الدولة الإسلامية منارة العلم في كافة المجالات -الطبية والنظرية والأدبية-وأقر علماء التاريخ في الشرق والغرب بفضلها على سائر الأمم.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى مقولة المؤرخ الانجليزي جيبون الشهيرة **"إنّ الشريعة المحمدية تشمل الناس جميعاً في أحكامها ومن أعظم ملك إلى أقل مملوك فهي شريعة حيكت على منوال شرعي لا يوجد مثله قط في العالمين"** [11].

هذه جملة من أقوال فلاسفة الفكر الغربي وفقهاء القانون وهم أهل الاختصاص والخبرة في إعجاز التشريع الإسلامي وحاجة البشرية الملحة إلى تفعيله في التقنيات المعاصرة، والحق الذي علينا قوله هو أنه مهما حاول الباحثون إبراز جوهرة الشريعة وجوهر إعجازها فلن يستطيعوا أن يوفوا حقها بل لن يستطيعوا تحصيل ولو قدراً يسيرا من محاسنها.

وعلى ضوء ما سبق نستنتج أن الفقه الإسلامي ساهم في تأسيس القوانين الغربية وساهم في ترقية الفكر الغربي.

إنّ الفقه الإسلامي ليس مصدرا عالميا للتشريع وحسب، بل إنه ضرب فريد ومتميز عن التشريعات المعروفة، إذ لم تعرف البشرية مثله من قبل قط.

ورغم تطور العقل الغربي مقارنة بالعقل العربي والإسلامي إلا ان هذا لم يمنعه من اللجوء إلى منظومة الفقه الإسلامي، وهذا يدل على أن الغرب يحكم على تخلف العقل العربي، لكنه لم يحكم على تخلف الدين الإسلامي، وبما أن العقل العربي متخلف ورغم ذلك يعتمد الغرب على المنظومة القانونية الإسلامية، فهذا يعني أن الغرب يدرك جيداً قيمة التشريع الإسلامي وهذا ما يفند فكرة الإسلاموفوبيا التي ينادي بها رجال السياسة والعسكريين الغربيين.

الهوامش

1- المحامي خليل غصن، أثر الفقه الاسلامي على القوانين الغربية، محاضرة ألقيت في مركز أبو بكر الصديق عام 2007م، ص 1،4

2-علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ط8، 1119م، ج3، ص21.

3 - مصطفى عبد الرزاق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية، مكتبة الإسكندرية: مصر، دط: 2010م، ص133.

4- ماجد فخري، تاريخ الفلسفة الاسلامية، دار المشرق: بيروت، ط2: 2000م، 25/7.

5- غوشاف لبون، حضارة العرب، مؤسسة هنداوي، مصر، دط، 2012م، ص31.

6- لويس سديو، خلاصة تاريخ العرب، مؤسسة هنداوي سي أي سي، المملكة المتحدة، ص16.

7- علي حيدر، درر الاحكام شرح مجلة الاحكام، دار عالم الكتب للطباعة، السعودية، 1463هـ-2003م، مجلد الرابع، ص560.

8 - علي أحمد الجرجاوي، حكمة التشريع فلسفته، دار الفكر، بيروت، ط2: 1424هـ-2003م، ص 26.

9- نويل ج كولسون، في تاريخ التشريع الاسلامي، المؤسسة جامعية، لبنان، دط، 1412هـ-1992م، ص28- 29.
10 - التشريع الاسلامي فى دراسة أعلام الغربين، مجلة الازهر، المجلد 24، الجزء 7، رجب1372هـ-1953م، ص885.
11 - مجلة البيان، العدد324، شعبان 1435هـ يونيو 2014م، ص6.

ثامنا / كونية القيم في الإسلام

"كانت الحضارة الإسلامية السباقة إلى تحقيق الازدهار الحضاري في تاريخها... ورغم أفولها اليوم وتراجع أدائها، إلا أنها لن تفنى ولن تندثر، وما سبب هذا التراجع إلا بعد المسلمين عن حيثيات دينهم وتخليهم عن جوهر عقيدتهم، والإسلام كدين وكحضارة تتوفر فيه كل الخصائص والمميزات الحضارية التي يحلم بها العالم اليوم ويتمناها الإنسان المعاصر"

روجي غارودي

ثامنا /كونية القيم في الإسلام

لم يأت الدين الإسلامي ليخص أمة دون أخرى بل جاء للناس كافة وكرم بني آدم دون أن يقصي منهم أحدا، وهو رسالة صالحة لكل زمان فهو يدعو إلى التعاون والوحدة والتآلف والمحبة مع أي شخص دون النظر إلى عرقه أو شكله أو دينه ويدعو إلى السلام وصلة الأرحام والعدل والإحسان، والمجتمع الإسلامي هو المجتمع الذي تعتبر فيه العقيدة "الجنسية التي تجمع بين الأسود والأبيض والأحمر والأصفر، والعربي والرومي والفارسي والحبشي وسائر أجناس الأرض في أمة واحدة ربها الله".[1]

والإسلام هو الدين الوحيد الذي تسقط في ظله جميع الفروق من خلال جمعه لمختلف الأجناس في إطار الأخوة والعلاقات الإنسانية ويكون هذا الدين في المجتمع بمثابة المنظم والمسير لحياة البشر كافة، وهذا ما يظهر من خلال اعتناق الكثير من علماء الغرب للإسلام وإعجابهم بدين الحق، وذلك لأن الإسلام يحتوي على تعاليم إنسانية راقية نوجزها في العناصر التالية

1/الإسلام وثقافة المعاملة

يفترض أن سلوك المسلمين يمثل جوهر الإسلام والمنطلق الأساسي الذي جاء لأجله "وإنما نلتمسها في تلك الأعمال الوديعة

الهادئة، التي قام بها الدعاة وأصحاب المهن. الذين حملوا عقيدتهم إلى كل صقع من الأرض، على أن هؤلاء الدعاة لم يلجئوا إلى اتخاذ مثل هذه الأساليب السلمية في نشر هذا الدين عن طريق الدعوة والإقناع، بخلاف ما زعم بعضهم، فيما جعلت الظروف القوة والعنف أملا مستحيلا، يتنافى مع الأساليب السياسية، فلقد جاء القرآن مشددا في الحث على هذه الطرق السلمية".[2]فالمسلمون منذ بدأ الدعوة الإسلامية كانوا يعاملون الغير بإحسان، فقد سعوا لنشر الإسلام والعقيدة الإسلامية بطرق سلمية ولا يقاتلون إلا الذين يقاتلهم ولا يؤذون أحدا، وأفعال المسلمين الحقيقيين وتعاملهم مع غيرهم بالرحمة والإحسان و نشرهم لأخلاق القرآن التي أوصى بها النبي عليه السلام هي التي مثلت حقيقة هذا الدين و ساعدت في انتشاره بين الأمم الأخرى فعن أبي ذَرٍّ جُنْدُبِ بْنِ جُنَادةَ، وأبي عبْدِالرَّحْمنِ مُعاذِ بْنِ جبلٍ رضيَ اللَّه عنهما، عنْ رسولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ" **اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحسنةَ تَمْحُهَا، وخَالقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ** " رواهُ التِّرْمذيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ.

وقدس الإسلام ثقافة المعاملة الحسنة وأمر بالتعارف، وأعطى له درجة عالية من الاهتمام، فقد كان شاملا في الدعوة ومراعيا لجميع جوانب الحياة الكريمة التي تحقق للفرد الرفاهية في الحياة الدنيوية والأخروية و تحقق له السعادة و لاشك أن هذه السعادة لا

تتحقق إلا بحسن المعاملات، فالمولى عز وجل بين في القرآن الكريم أسس المعاملة مع النفس ومع الغير وحرم الظلم بالاعتداءات على الآخرين بالقول أو بالفعل، وأمر بالكف عن النفاق والغيبة التي تفسد علاقة الفرد مع غيره من الناس، كما أمر الاسلام باحترام الذات الإنسانية وتقديسها فالله لم يخلق الإنسان عبثا بل كرمه بالعقل والأخلاق، وفي هذا يقول عز من قائل ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا** ﴾ سورة الإسراء الآية 70، ويقول أيضا ﴿ **وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾ سورة فصلت الآية 34.

وهذه الآيات وغيرها تدل على وجوب حسن المعاملة مع الغير بل إن الإسلام شرع العبادات من أجل حسن المعاملة ولا قيمة لأي عبادة في الإسلام ما لم تنتهي الى معاملة حسنة مع الغير، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن الصحابة قالوا "**يا رَسولَ اللهِ، فُلانةُ تَصومُ النَّهارَ وتَقومُ اللَّيلَ، وتُؤذي جيرانَها؟ قال: هيَ في النَّارِ، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، فُلانةُ تُصلّي المَكتوباتِ، وتَصَدَّقُ بِالأَثوارِ مِنَ الأَقِطِ، وَلا تُؤذي جيرانَها؟ قال: هيَ في الجنَّةِ**". رواه أحمد وابن حبان. ومعنى هذا أن الهدف من العبادة هو ضبط السلوك ليكون حسنا مع الآخرين.

2/الإسلام دين الوسطية والاعتدال

الإسلام هو دين وسطية واعتدال بامتياز، وهذه الصفة هي التي تميزه عن باقي الديانات الأخرى، من خلال المبادئ التي يدعو إليها ويتجلى هذا واضحا في الكتاب والسنة النبوية، وهذا ما يظهر في قوله عز وجل﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ سورة البقرة الآية 143 .

ذلك أن الإسلام لم يقتصر على مجال دون آخر بل يدعو إلى تحقيق الاعتدال في كل أمر، وتحقيق التوافق بين الروح والجسد وبين ما هو مادي وما هو معنوي وبين الدنيا والآخرة، فلم يقتصر على الآخرة فقط بل دعى إلى التمتع بالدنيا أيضا لكن حسب شروط وضوابط، وإن" هذه الوسطية، بالنسبة للمنهج الإسلامي – وحضارتهم - هي "عدسته اللامة" لأشعة ضوئه وزاوية رؤيته كمنهج، وزاوية الرؤية به أيضا. وقد بلغت وتبلغ هذا المقام، لأنها –بنفيها الغلو الظالم والتطرف الباطل - إنما تمثل الفطرة الإنسانية قبل أن تعرض لها وتعدو عليها عوارض وعاديات الآفات... تمثل الفطرة الإنسانية ببساطتها، وبديهيتها، وعمقها، وصدق تعبيرها".[3]

وتقوم الوسطية والاعتدال في الإسلام على عدم الإفراط التفريط فالمسلم يجب أن يبتعد عن هاتين الصفتين، لأن الإفراط يوصل الإنسان إلى التشدد والتعصب، والتفريط يؤدي به إلى التهاون والتقصير في الحياة ككل. وهذا دليل على أن الغرب خاطئ في نظرته للإسلام القائمة على أنه دين تشدد ودين يكبح الحريات والشهوات وهو دين عبودية فقط.

ولم يقف الدين الإسلامي عائقا أمام حرية الإنسان بل سبق كرامته على حريته، ولم يكبح الإسلام شهوات الإنسان بل ضبطها بأخلاق معلومة، ونصح الإسلام الإنسان بأن لا ينسى نصيبه من الدنيا، وقد حدد له ضوابط لممارسة مختلف حقوقه ونشاطاته بطريقة سليمة لا تعود عليه ولا على غيره بالضرر، وقدس الإسلام الإنسان وجعله خليفة الله في الأرض.

3/الإسلام دين محاسن القيم ومكارم الأخلاق

إن القيم الأخلاقية التي يدعو إليها الإسلام هي القيم السامية التي إن اتبعها الفرد تحققت له الحياة الكريمة ، والراحة النفسية والطمأنينة وكان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يمتاز بهذه القيم وقال بها فالرسول صلى الله عليه وسلم باعتباره قائد الأمة الإسلامية، كان يتصف بمكارم الأخلاق، وقد بعثه الله تعالى لكي ينشرها على عباده من خلال تحريم كل ما يعادي هذا الدين

والأخلاق، وقد أمر الإسلام بشكل واضح في جميع آياته وأحاديثه النبوية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واعتبره أساس السعادة الدنيوية والأخروية و أساس خيرية هذه الأمة.

ويتضمن" الإسلام قواعد نظرية أخلاقية متكاملة تقود إلى الفضائل في أحسن ما تكون عليه، وهذا الأمر ينبع من غاية رسالة الإسلام التي هي رحمة للعالمين"[4] . فالقيم من أهم الركائز التي تساعد على بناء شخصية قوية وسليمة للفرد وبها تستقيم الحياة الإنسانية، وهي أساس بناء مجتمع متماسك، والقيم التي جاء بها الإسلام هي قيم سهلة التطبيق وممكنة الممارسة، وهدفها هو تحسين حياة الإنسان وتنظيم علاقته مع غيره من البشر، والقيم التي تدعو إليها الشريعة الإسلامية هي قيم عالمية تخص جميع جوانب الحياة وجميع أنواع المعاملات البشرية، ولم تأت للفرد المسلم فقط، وإنما جاءت لكافة الناس على اختلاف أديانهم ومذاهبهم.

ونظرا لأهمية القيم في حياة المسلمين ودورها الفعال في ازدهارهم، ولما كانت هذه القيم والأخلاق أساسا لتطور المسلمين عمل الغرب على إفساد هذه الأخلاق "وقد أدرك أعداء المسلمين هذه الحقائق عن مكارم الأخلاق، فعملوا على إفساد أخلاق المسلمين بكل ما أوتوا من مكر ودهاء، وبكل ما أوتوا من وسائل

مادية وشياطين إغواء، ليبعثروا قواهم المتماسكة بالأخلاق الإسلامية العظيمة".[5]

إن قوة الإسلام تكمن في قوة منظومته القيمية التي شملت جميع مجالات الحياة، ولم يترك الإسلام صغيرة أو كبيرة في حياة الناس إلا وأطرها أخلاقيا، لقد علمنا الإسلام كل شيء.

4/الإسلام دين عفو وصفح

من بين الصفات التي يتميز بها المسلمون مع غيرهم التزاما بتعاليم الإسلام العفو والصفح عند المقدرة والرأفة والرحمة فالإسلام يمنع المسلم من أن يتعرض بالأذى أو السوء لأي انسان آخر سواء كان مسلما أو غير مسلم، يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ﴿ **لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ سورة الممتحنة الآية 8

وقد حذر النبي عليه الصلاة والسلام من التعرض لأي إنسان بغير وجه حق، وذم صفة الظلم مهما كانت الأسباب وحرم الإسلام الانتقام كما حرم الحقد والتباغض بين الناس، والكثير من اهل الإسلام خاصة في القرون الأولى كانت اخلاقهم تعكس صورة الإسلام الحقيقية ويطبقون مبادئه كما ذكرت في القرآن الكريم، معتبرين

إياه المرجعية الأساسية لهم في تدبير شؤونهم حياتهم وضبط علاقاتهم مع غيرهم.[6]

وحظيت أديان مختلفة من الدين الإسلامي بكامل الحقوق والرعاية وسمحت السلطات لغير مسلمين بممارسة شعائر دينهم دونما تضييق، ومن هذا المنطلق يؤكد غارودي أن الإسلام لم ينتشر بقوة السلاح، ولم يسل النبي السيف إلا في حالة الدفاع عن النفس.[7]

وهذا خير دليل وهو اعتراف غربي بحقيقة الإسلام وبانفتاحه وتسامحه مع الغير واحترامه لهم **"أعني أن الإسلام في حقيقته الو اقعية وفي سمو مبادئه الإنسانية السامية إنما هو دين الحق والخير والجمال والمحبة والأخوة والرحمة والرفق والر أفة، والتسامح والتضامن بين أبناء آدم وحواء"**.[8]

فكل هذه الصفات موجودة في الإسلام وأمر بها من أجل تحقيق وحدة الإنسانية بعيدة عن الصراع ومبدأه الخير والتعاون، وشجع الإسلام التنوع والاختلاف الموجود بين الناس في ثقافاتهم ولغاتهم شرط ألا تحيد عن أخلاق الإسلام، كما شجع على التعارف قال عز وجل ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾

سورة الحجرات الآية 13. فالتقوى هي معيار حب الله لنا وحبنا الله وهي معيار نجاحنا، وهي معيار تمسكنا بديننا.

فالمولى عز وجل يدعوا عباده للتعايش والتفاعل مع الآخرين من أجل بناء مستقبل آمن خالي من أي مشاكل ونزاعات، والاختلاف هو سنة الحياة في الإسلام، والله تعالى خلقنا مختلفين وأعطى لنا الضوابط التي تحدد لنا هذا الاختلاف ودعى إلى العفو والصفح والعديد من الغربيين يشهدون أن الإسلام هو دين رحمة نتيجة لتأثرهم بالمسلمين وأخلاقهم وتسامحهم، فقد كانوا بمثابة النموذج والقدوة الحسنة للشعوب الأخرى، وهذا ما دفع بالكثيرين لاعتناق هذا الدين والتعمق فيه وإنصافه أمام مختلف الدعوات الرافضة له ولجوهره المتعالي. فالإسلام دين سلم وسلام وتعايش.

وكان النبي ﷺ يقوم بدعوة أهل الكتاب ويزور مرضاهم طاعة لله ولا ينهى البنت المسلمة أن تبر أمها المشركة ما دامت جاءت راغبة في الصلة غير رافعة للسلاح على المسلمين، والكافر إذا كان معاهداً أو ذمياً فلا يجوز نقض عهد الأمان معه، ولا الاعتداء عليه قال ﷺ **" ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة "** رواه أبو داود، ففي هذا الحديث يظهر جليا حرص الإسلام على الالتزام بالعهود والمواثيق حتى مع الكفار يقول ﷺ **" من قتل معاهداً له**

ذمة الله، وذمة رسوله؛ حرّم الله عليه ريح الجنة، وإن ريحها لتوجد من مسيرة سبعين خريفا". ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل النسا، والصبيان في الحروب فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال "وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان" رواه البخاري ومسلم. فإذا لم يحملوا السلاح أي النساء والصبيان، ولم يعينوا على المسلمين لم يجز مسهم بسوء، ولم يجز قتلهم ولا إعمال السلاح فيهم، وقام أئمة الإسلام بالدفاع عن أهل الذمة في البلدان التي كانت تحكم بالشريعة عندما يتعرضون للظلم وخير مثال على ذلك دفاع ابن تيمية عن أسرى اليهود والنصارى الذين وقعوا في يد قازان، وقد ذكرنا هذا في كتاب خرافة الإسلاموفوبيا، وكثير من الآيات القرآنية تأمر المؤمن بالصفح والعفو ومنها قوله عز وجل﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ سورة التغابن الآية 14. فالمولى عزو جل يأمرنا بالصفح عن الناس حتى ننال مغفرته وعفوه.

5/ عالمية الإسلام

إن كل الدلائل تؤكد اليوم على أن الإسلام دين عالمي، جاء لكافة البشر، ويهدف إلى تحقيق الخير والمنفعة لكل الناس، فليس من صفاته التفرد بل جاء للجميع، وهذا واضح في غير ما آية من

آيات الكتاب المبين على الرغم من أن بعضا من غير المسلمين يرون بعكس ذلك فهم يعتقدون أن الإسلام دين خاص بالعرب فقط، لأن الرسالة الإسلامية نزلت في الجزيرة العربية وباللغة العربية. لذا فهو خاص بالعرب فقط.

لكن في التعمق نجد أن هذه النظرة ناقصة بسبب الجهل بحقيقة الإسلام وما يحتويه فهو منظومة شاملة جاء لكل البشر ولكل الأزمنة فالإسلام يهدف إلى الانسجام بين البشر على رغم من اختلافهم. فهناك العديد من الدلائل التي تؤكد على هذه الحقيقة وهي أن الإسلام دين عالمي دون منازع كونه صالح لكل جنس ويحقق السلام والأمان والحرية لكل معتنقيه. ويبتعد عن كل أنواع النزاع والصراع والصدام بين البشر وبين المسلم ونفسه، كما أن قواعده ومبادئه كل تحتوي على الواقعية لأنها سهلة التطبيق والممارسة وتبتعد عن المشقة فهو دين يسر وليس دين عسر، وجاء لكي يحقق الراحة والطمأنينة للناس.

كما أن الإسلام في أغلب آيات القرآن الكريم يدعوا إلى أعمال العقل والفكر للوصول إلى حقائق علمية، وتجسد ذلك في الإعجاز القرآني حيث وصل العلم إلى البرهنة على مصداقية جميع الحقائق الموجودة في القرآن الكريم، كما دعى إلى كل ما يحقق النفع والفائدة للإنسان كطلب العلم فأول كلمة نزلت في القرآن كانت اقرأ، ويدعوا

إلى البعد عن الجهل والتخلف، ويسعى إلى الارتقاء والانفتاح على الحياة والإقبال عليها ومواجهة كل التحديات التي تواجه الإنسان، فقد أعطى الحلول لكل المشاكل التي قد يقع فيها الفرد سواء بإرادته أو دون قصد منه، كذلك هو دستور لتنظيم جميع مجالات الحياة وتنظيم علاقة المسلمين مع بعضهم ومع غيرهم من المجتمعات الأخرى، كما أن الإسلام دين رحمة ومودة، وتتجلى هذه الرحمة والعطف حتى على الحيوان فقد أمر بالرأفة بهم ،وحتى البيئة لم يتجاهلها الدين الإسلامي فالنبي صلى الله عليه وسلم أمر بالحفاظ على الثروات الطبيعية وعدم العبث بها أو تبذيرها، لأن الله تعالى خلق كل شيء في هذا الكون لغاية معلومة ووظيفة محددة، وهذا يظهر في غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى.

لقد كانت الحضارة الإسلامية نبعا ومصدرا للإبداع الحضاري فالحضارة الإسلامية قائمة بذاتها، وتشمل على كل المجالات التي تحقق الازدهار للشعوب، وكانت حاضرة في كل الميادين سواء كان ذلك في الاقتصاد أو السياسة أو الثقافة، وحتى الفنون والآداب والكثير من الغربيين نهلوا منها، وكانت تتوفر على جميع متطلبات العصر على عكس ما توصف به الآن و"أبرز الدلائل على عالمية الإسلام واستحقاقه للبقاء والانتشار تتمثل في تطابقه مع الفطرة الإنسانية وقدرته على العطاء لكل العصور والأزمنة والبيئات.

وطابعه الإنساني القائم على الإخاء والمساواة وعدم التفرقة بين الأجناس والعناصر".[9]

فالإسلام منظومة تتوافق مع أي عقل أو شعب أو جنس، كونه ثابت وصالح لكل شؤون الحياة، فقد حدد كل الأمور التي تخص الإنسان في حياته وأعطى لها الحلول، ونظم علاقة الإنسان بالله وعلاقته بالآخر وعلاقته بنفسه، فقد حدد الأسس لقيام الأمم والدول مثل نظام الحكم وشروط الحاكم وأيضا علاقة الشعوب مع بعضها على أساس العفو والقصاص والقانون.

وفي هذا يشهد جورج برنارد شو الذي قال عن الدين الإسلامي ونبيه محمد في مقال له " **إذا كان لديانة معينة ان تنتشر في إنجلترا بل في اروبا في خلال مئات السنوات المقبلة فهي الإسلام، لقد نظرت دائما إلى ديانة محمد بأعلى درجات السمو بسبب حيويتها الجميلة إنها الديانة الوحيدة في نظري التي تمتلك قدرة الاندماج في هذه المراحل من مراحل البشرية بما يجعلها جاذبة لكل عصر**".[10]

لقد كانت نظرة برنارد شو للإسلام نظرة موضوعية فقد شهد برنارد شو على سماحة هذا الدين واعتراف ان محمد صلى الله عليه وسلم عبقري قادر على قيادة العالم وحل جميع مشاكله، فقد جعل الدين الإسلامي منهج حياة قادر على توفير جميع متطلبات العصور.

واعترف برنارد شو بأن الإسلام كدين شامل سوف يغزو في المستقبل قارة اروبا والعالم بأسره، فمنذ القديم سعى رجال الدين في العصور الوسطى الى محو كل ما يتعلق بالإسلام والطعن والتشكيك في صدق رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، وصور لنا رجال الدين المسيحيين الإسلام على أنه دين تعصب يشجع على العنف والقتل وهو عدو المسيحيين ويهدد استقرارهم وأمنهم لذلك لابد من محاربته وإبادة المسلمين كافة، وهذا ما نفاه برنارد شو جملة وتفصيلا.

إن الإسلام هو دين التسامح والعفو والصفح والاحترام، إنه دين السلام والأمان وعاجلا أم آجلا سيصبح دين عالمي.

ومن أهم الدلائل التي تدل على عالمية الإسلام هو التقاء الناس من كل البقاع، ومن مختلف الأجناس في الكعبة المشرفة وبرداء واحد لتنصهر فيه كل طبقات المجتمع دون تمييز حاكمهم ومحكومهم، غنيهم وفقيرهم ويشهد العديد من المفكرين بكونية القيم الإسلامية وعالمية هذا الدين ومنهم روجي غارودي وإدغار موران، والدخول المتزايد من الناس إليه من اهل الملل الأخرى دليل على ذلك، فهو في تزايد وانتشار وتوسع، وهذا يمثل دحضا لكل الأفكار التي ضربت صميم الإسلام ووصفتهم بالإرهاب، والتي تحمل في طياتها الكثير من المغالطات.

وما ننتهي إليه هو أن السياسة العربية الفاسدة أثرت كثيرا على المجتمع العربي الذي يعاني بشكل كبير، فهو يفتقر إلى أدنى مستويات العيش الكريم نتيجة لحرمانه من أبسط حقوقه في هذه الحياة، وهذا ما أدى بالشباب العربي إلى التفكير في حلول سلبية كالهجرة غير الشرعية أو القيام بأعمال عنف مثل التدمير والتخريب والخروج عن الدولة والذي فسره البعض بالإرهاب، وتم ربط هذه الظاهرة بالمجتمع العربي وبالمسلم والإسلام.

لكن الإسلام منزه عن كل هذه الأفعال الشاذة، فالإسلام منذ بدأ دعوته كان ينبذ العنف والتطرف ويدعوا إلى السلم والعفو واللين، وهذا ما نلمسه في أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام حيث أنه حورب من أقرب الناس إليه إلا أنه كان متسامحا ويدعوا إلى السلم والسلام فالدين الإسلامي لم تقترن إلا بالأمن وسعى إلى تحقيق النفع ودفع الضرر عن الأفراد والجماعات، لذلك نجده يحرم كل ما يؤذي النفس ويؤدي إلى إفساد الروابط الاجتماعية ويحث على كل ما يساعد الإنسان على البناء والتطور والتعاون والعدل والرحمة والاحسان والمساواة بين الناس أمام القانون وكلها مبادئ يدعو إليها ويطمح كل إنسان حضاري.

ولو لم يكن الإسلام دينا عالميا، ولو أنه دين خاص بالعرب لما شكل خطورة على الغرب ولما حاربوه أصلا، فنقطة خطورة

الإسلام على الغرب تكمن في كونيته وعالميته وصلاحيته لكل الأزمان ومساواته بين الناس ورفضه لكل أشكال التمييز العنصري ومقته لكل أشكال التعصب، ودليل ذلك أن الله لن يسألنا يوم العرض الأكبر عن جنسنا أو حسبنا ونسبنا، وإنما يسألنا عن تقوانا وصلاحنا وما قدمناه لديننا وما نفعنا به غيرنا، فالكل في نظر الإسلام في خسران إلا الذين آمنوا وعملوا صالحا وكانوا على الحق.

6/ روجي غارودي والرؤية الكونية للإسلام

بعد أن تنقل غارودي بين كثير من الديانات والمعتقدات استقر على دين الإسلام، هذا الأخير الذي وصل إليه بعد رحلة بحث وتحري، وبعد مدة طويلة من ممارسة عملية النقد والتقييم لكثير من الأديان والإيديولوجيات وما احتوت عليه من أفكار.

فمن الإلحاد إلى المسيحية البروتستانتية مرورا بالشيوعية الماركسية وصولا إلى الإسلام، ويقول عن كيفية انتمائه وإيمانه بهذا الدين" **أحب أن أقول أن انتمائي للإسلام لم يأت بمحض الصدفة بل جاء بعد رحلة عناء وبحث ورحلة طويلة تخللتها منعطفات كثيرة حتى وصلت إلى مرحلة اليقين الكامل والخلود إلى العقيدة أو الديانة التي تمثل الاستقرار، والإسلام في نظري هو الاستقرار**"[11] بمعنى أن دخوله في الإسلام لم يكن اعتباطيا أو في

لحظة تعاطف بل وصل إليه من خلال التأمل والتدبر والتمعن إلى إن وصل إلى اعتقاد أن الإسلام هو الاستقرار بالنسبة إليه.

كان دخوله في الإسلام في الرابع من آذار مارس 1941 عندما كان من بين المعتقلين بسبب مقاومتهم لهتلر، وقد قام بتهجيرهم إلى الجلفة جنوب الجزائر، وكانت حراستهم بين الأسلاك الشائكة وفي ذلك اليوم نظموا مظاهرة على شرف رفاقهم في الفرق الدولية الاستعمارية، وعصيانهم لقائد المعسكر جعله يغضب منهم وقد انذرهم ثلاثا إلا أنهم أصروا على عصيانهم، مما جعل القائد يأمر حاملي السلاح من العرب الجزائريين المسلمين بإطلاق النار عليهم إلا انهم رفضوا رغم التهديدات التي تعرضوا لها، وبفضلهم عاشر غارودي مدة أخرى من الزمن، ولقد استفسر منهم لماذا لم تطلقوا النار؟ فأجابوه بأن هذا ينافي مبادئ الدين الإسلامي، وهذه المبادئ تمنع وتحرم أن يطلق رجل مسلح النار على رجل أعزل[12].

إن التزامهم بعقيدة الإسلام واحترامهم للشريعة الإسلامية جعل إعجاب روجي غارودي يزداد أكثر بهذا الدين الذي يحفظ قدسية الإنسان، بالإضافة إلى أنه دين يحمي العديد من القيم الأخلاقية التي يفتقدها العالم اليوم بالأخص العالم الغربي.

واهتم العديد من المفكرين والفلاسفة بقضايا الإنسان والمشاكل التي تحيط به، والعوائق التي تعترض طريقه كذات

إنسانية تسعى لتشييد حضارة، ولا سيما في الوقت المعاصر، ومن بينهم نجد روجي غارودي أو كما يسميه البعض فيلسوف الإنسانية، لا لشيء سوى أن فكره ومشروعه الحضاري جاء ليتدارك ما غفل عنه الغرب من أبعاد إنسانية، وتسبب هذا الاهمال للأبعاد الإنسانية في حدوث مشاكل وآلام جعلت الفرد الغربي خاصة والعالمي بصفة عامة يعاني من أزمات حادة شغلته وألهته عن آداء دوره الحضاري ومسؤوليته الإتيقية إزاء وطنه ومجتمعه وأمته.

لقد تبصر غارودي الحلول النهائية لمشاكل الإنسان والمراهم الشافية للأمراض التي فتكت به في عقيدة توحيدية هي الإسلام، فالإنسان تخلى عن الإيمان بفكرة وجود الله، وهذا الكلام يقتصر على كل ملحد يائس من الحياة وبين غارودي أن هذا الوحي بالوحدة الإلهية (التوحيد) الذي يعطي لكل حياة ولكل شيء معنى بالنسب كعلاقته بالكل، ليس توحيدا جامدا يوجبه الإيمان بالله الواحد المجرد [13]؛ بل هو إضافة المعنى للحياة، هذا ما أضافه الدين الإسلامي لمعتنقيه، في ظل المادية التي قضت على هذا الجانب وجعلت أسمى معنى يعيشه المرء في ظل النموذج الغربي هو النمو من اجل النمو ولا وجود لمعنى آخر غيره.

بالإضافة إلى أن الإسلام يضفي معنى للحياة، فإنه يخلص الإنسان من شعوره بالاغتراب، والدليل على ذلك أننا إذا رجعنا إلى

الحضارة الإسلامية نجد أنه " قد ظهرت حيوية العقيدة الإسلامية أيام ازدهار الحضارة الإسلامية حيث حركت المسلمين لنشر الإسلام في العالم لإعلاء كلمة الله تعالى، ومثلما فعلت في الماضي، فإن هذه العقيدة كانت بمثابة الدرع الواقي للمسلمين في معركتهم ضد الاغتراب في العصر الحاضر"[14]

واستطاع الإسلام أن يتجاوز أحد المشكلات العويصة التي طالما عانى منها الغربيون مما جعلهم يبعدون الدين عن كل مجالات الحياة، وحصره فقط في المعابد والكنائس، وهي مشكلة فصل الدين عن الدولة، كما يطلق عليه البعض، في حين " يسمح الإسلام بوضع مشكلة العلاقات بين العقيدة والسياسة"[15]، ومنه استطاعت العقيدة الإسلامية أن تجمع بين بعدين، الجانب العقدي والجانب الممارساتي، أي بين العقيدة والسياسة، عكس ما حدث في أوربا إذ يستبعدون الدين في الممارسة السياسية.

أما بالنسبة لسياسة الطبقية والتمييز العنصري الذي أصبح العالم غارقا فيها، ليسيطر القوي على الضعيف ويستغل الغني الفقير، وجاء الإسلام لنشر مبدأ العدل والمساواة حيث لا فرق بين أبيض وأسود أو عزيز وذليل أو عربي أو أعجمي، بل يضع الإسلام كل إنسان في رتبة الإنسانية، ووجب معاملته كونه غاية في حد ذاته بعيدا عن انتمائه وجنسه ولونه ودينه، وكون العقيدة الإسلامية

تقوم على التقوى والمساواة فإن الإسلام في نظر روجي غارودي " يفضي إلى تساوي جميع البشر دون أي استفتاء الأمر الذي جعل الإسلام دعوة لتحرير الشعوب المقهورة سياسيا واقتصاديا ودينيا "[16].

وأكبر عائد قدمه الإسلام للبشرية جمعاء وبالتحديد من اتخذه منهج حياة، هو إضفاء البعد الإنساني على كل مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية، فقد خلص الاقتصاد من شعار النمو من أجل النمو، ليجعله اقتصاد يحترم الإنسان ويقدسه ويميزه عن الآلة، اقتصاد يؤمن الحاجة المادية للإنسان دون أن يستهلك إنسانيته، كذلك هو حال الشأن السياسي، فالإسلام بمبدأ التوحيد يرفض كل أشكال التسلط والاستعباد، بل يؤكد على ضرورة منح الإنسان الحرية وعتقه من كل القيود تحت أي مسمى.

جاء الاسلام ليسعد الإنسان لا ليكبله، وجاء ليخدمه لا ليهدمه ويريد غارودي من خلال مشروع أنسنة الاقتصاد أن يقدم حلا للاقتصاد الغربي بطرح بديل وهو الاقتصاد الإسلامي يقول غارودي **" يناقض مفهوم الإسلام للاقتصاد المفهوم السائد في الغرب حيث لا يعني الاقتصاد سوى الإنتاج والاستهلاك كهدفين لذاتهما إنتاج واستهلاك أكثر فأكثر وأسرع ما يكون لأي شيء تافها كان أو**

نافعا، دون أدنى رعاية للغايات الإنسانية، بينما لا يهدف الاقتصاد في ظل النظام الإسلامي إلى النمو ذاته، ولكن إلى التوازن، مما يستبعد أقل تشابه بين الرأسمالية والنظام الجماعي، وبين النظام الاقتصادي في الإسلام، فهذا الأخير يتمتع بخصوصية أساسية، تتمثل في رفع الخضوع الأعلى للآلة، بل هو يحمل غاية في ذاته باعتباره تنظيما لأهداف عقائدية و إنسانية سامية " [17]؛ من منظور الاقتصاد الإسلامي يتحرر الإنسان من عبودية المادية والخنوع الحاصلين بفعل النمو والتقدم، ليصبح هدف الاقتصاد ليس النمو من أجل النمو بل الإنتاج به وتلبية حاجيات الإنسان واستهلاك ما يفيد وينفع، فهو بذلك يدافع عن الغايات السامية والأهداف الإنسانية للاقتصاد، كون أن الإنسان يحظى بنظرة تقديسية في ظل العقيدة الإسلامية ترفعه عن مستنقع الماديات بل تجعله في شكل متوازن بينها وبين الأبعاد الروحية.

أما في الشأن السياسي -في نظر روجي غارودي - فالأمر يتشابه مع الشأن الاقتصادي في محاولة من الإسلام أن ينجح في التشريع لها، لإنقاذ البشرية من اندثار الإنسانية، والبعد الأخلاقي في أوساط النظم السياسية، فشريعته تنبذ الاستبداد والظلم والفساد، كون الإسلام ينظم حياة الفرد والمجتمع، ويتضمن أسس النظام السياسي والاقتصادي[18]، وبهذا يكون الإسلام قد قدم حلولا

تعصم الإنسان المعاصر من التخبط في الأزمات الفكرية والمعاناة المرضية من كل أشكال الاغتراب المادي وأطياف الاستبداد وألوان الظلم والفساد على مستوى مجالات الحياة.

ويعتبر الإسلام الإنسان في المعادلة الحضارية عند غارودي أهم عناصرها، إن لم نقل الأساس الذي ترتكز عليه وتنبثق منه، ولا سبيل لتحقيق نهضة شاملة تتسم بالبعد الإنساني والعالمي في معزل عن العقيدة الإسلامية، كما أنها تشكل الدرع الذي يقي البناء الحضاري من الاندثار، والسياج الذي يحضنه من الاختراق، كونه يسع البشرية جمعاء بتنوع مشاربها وثقافاتها وأديانها وتوجهاتها، لأنه يستوعب الإنسان مهما كانت هويته، وهذا البعد الإنساني الذي يتبناه الإسلام يحمل في طياته العديد من المبادئ الأخلاقية والسلوكات القيمية الحافظة للجانب الروحي للحياة، والتي من بين وظائفها أيضا الارتقاء بالأهداف والغايات التي تسطرها الذات لإعطاء معنى لحياتها.

وفي عام 1981صرح روجي غارودي في كتابه وعود الإسلام بالجوانب الإيجابية للإسلام، تلك الجوانب التي جعلت منه الاختيار والخيار الوحيد والأمثل أمام كل البشر للخروج من المأزق التي تعاني منها، والنجاة من الهلاك المحقق، ومن ثمة التمكن من بناء صرح حضاري قادر على حل المشاكل التي يعيش فيها عالمنا اليوم.

الإسلام في إطار رؤية غارودي هو الخيار الوحيد أمام البشرية للتخلص من معاناتها، وأمام كل فيلسوف حضاري أو مفكر في الشأن النهضوي أراد أن يضع معادلة حضارية لأمته ليخرجها من غياهب التخلف أو إن كانت لديه حضارة أراد أن يلحقها بالركب الإنساني، ولا يمكن لأي دين أو إيديولوجيا أن تحل محله، أو تلعب نفس الدور الذي يلعبه، أو توازي الأهمية الكبرى التي يحظى بها و" كان الإسلام إبان الصراع بين العالم الغربي والشيوعية يستطيع أن يعتبر نفسه الطريق الثالث المبيان لهما، أي أنه الخيار المستقل عن كليهما لفهم العالم والتعامل معه عقديا، أما اليوم فإن الإسلام يطرح نفسه بديلا لكلا النظامين، وذلك لتوفير الحياة على أفضل وجه، وتذليل مشكلاتها المستفحلة " [19].

وبين الصراع الغربي والشيوعي لم يعد ينظر للإسلام على أنه يتوسط خيارين، بل طرح كبديل في الساحة الفكرية الحضارية ليقود العالم أجمع إلى بر الأمان، لأنه يعالج مشكلاته ويطرح حلا لأزماته، ويستوعب الإنسان بتناقضاته وتقلباته وأبعاده فلم يقتصر على احتواء البعد المادي فقط كما هو الحال والمقام في النموذج الغربي بل " **إن الإسلام يغذي في الإنسان الروح، ولكنه يتعامل معه كبدن، وهو ينظم حياة الفرد والمجتمع، ويتضمن أسس النظام السياسي** "[20].

وهذا التصور الذي احتوى البعدين الأساسيين للإنسان جعله في موقف صدام مع الغرب، الذي اكتفى فقط بالجانب المادي مع إهمال الجانب الروحي أو الأخلاقي، إذن الإسلام كدين وحضارة مقابل حضارة الغرب برمتها، لأن القانون الإسلامي يرى نفسه بكل ما في الكلمة من معنى مأخوذ من وحي سماوي، أي أنه قانون إلهي أو سماوي، ويوصف المخطط الإسلامي كفلسفة للحياة، والذي يعتبر نفسه بديلا، لأنه قادم من بيئة مخالفة، ويواجه حقيقة الحضارة الغربية الجاهلة بالقيم، والتي تنظر للإباحية باسم الحرية والإسلام بهذا المعنى صالح لكل العصور[21].

وفي ظل هذا التصادم بين الحضارتين الإسلامية والغربية والتباين في المرتكزات الحضارية فغارودي " **يشير إلى ضرورة تفهم الغرب أن الإسلام يمكنه أن ينقذ العالم كله من ... الحرب النووية، بتقديم النموذج الأمثل للحياة النظيفة الكاملة، يمكنه مرة ثانية أن يبعث الأمل في مجتمعاتنا الغربية التي خربتها الفردية وخربها أنموذج النمو الذي يسوق العالم كله إلى الانتحار** "[22].

ويعتقد غارودي بأن الإسلام شرط أساسي لأي انبعاث حضاري، أو لإعادة ترميم حضارة قائمة من قبل على أسس لا تخدم الإنسان، وتؤمن بأهداف تستبيح حرمة الإنسان، فبين هذا وذاك بإمكان الثقافة الإسلامية أن تقدم حلولا لكل المجتمعات، بما فيها

الغربية، كما أن بإمكانها أن تنقذ العالم اليوم من الانتحار لكوني الذي تسبب فيه شعار رفعه وطبقه الغرب، النمو من أجل النمو.

إن ما جعل غارودي يؤسس نموذجه الحضاري على أساس أن الدين الإسلامي يمثل أحد الشروط الأساسية، ومن بين أهم المرتكزات الحضارية أمام كل حضارة، أرادت أن تشيد وأمام كل ريادة ودت لو تتوفر في كل مجالات الحياة، هو تمعنه الشديد في الحضارة الإسلامية والازدهار الذي حققته في تاريخها رغم أفولها اليوم وتراجع أدائها، إلا أن غارودي يؤكد على أنها لن تفنى ولن تندثر، وما سبب هذا التراجع إلا بعد المسلمين عن حيثيات دينهم وتخليهم عن جوهر عقيدتهم، إلا أن الإسلام كدين وكحضارة تتوفر فيه كل الخصائص والمميزات الحضارية التي يحلم بها العالم اليوم ويتمناها الإنسان المعاصر، ويرى غارودي أنه في النموذج الإسلامي مقومات تساعده على تحقيق حياة إنسانية أفضل، لم يجدها في أي نموذج آخر، والمقومات التي تأسست عليها الشريعة الإسلامية وجعلتها عالمية في نظر غارودي تتمثل في :

أ-التوحيد

يرى غارودي أن" **طبيعة هذا الدين وعقيدته تقوم على الألوهية الواحدة...فعقيدة التوحيد هي محور كل شيء في حياة**

الفرد المسلم، والأمة الإسلامية وغاية الوجود الإنساني هي تحقيق التوحيد لله عزوجل، الذي حدده قوله تعالي ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾، وتحقيق غاية الوجود الإنساني هو الذي تنشأ عنه الحضارة في الو اقع البشري "[23].

ويعطي غارودي بعدا لعقيدة التوحيد يتجلى في إعطاء معنى للحياة، وتشريف الإنسان بمسؤولية إعمار الأرض وخلافتها وصناعة المستقبل، كما أنه يحرره من كل أشكال العبودية، ويعتق حريته من كل سياسة جبرية تفرض وتملي عليه ما يحد من إرادته، وما ينقص من فاعليته، فالإسلام جاء ليعيد صناعة الإنسان الحضاري وصياغة الأهداف الراقية التي تمثله بتسامي ورقي، وتجعل لحياته معنى، يقول روجي غارودي " **أزمة الغايات أو بالأحرى هذا الغياب غياب الغاية الإنسانية والإلهية... يقدم إلى العالم ما ينقصه، وهو نقص معين، نعم يمكن أن يقدم له معنى الحياة** "[24].

وفي كتابه وعود الإسلام يؤكد غارودي على أهمية العقيدة الإسلامية في الارتقاء بالغايات الإنسانية يقول في ذلك " **إنها عقيدة تربط الإنسان بأصله وبغايته معا، وتعطي معنى لحياته انطلاقا من أركان الإسلام الخمس**"[25].

ب-شمولية الإسلام

الشمولية هي أحد الخصائص التي أعجب بها غارودي وجعلته يثني على الإسلام، ويشيد به على أنه ضرورة من الضرورات التي تفرضها أي نهضة حضارية، لأنه لا يقصي أي جانب من جوانب الحياة، كالسياسة والاقتصاد وغيرها من المجالات الحياتية، وبهذا يحيط الإسلام بجوانب الحياة كلها، بل يكون هو الحياة ذاتها أو منهجا لها، بحيث لا يعطي صورة جزئية عن الحضارة، أو يحشرها في زاوية من الزوايا بل على العكس، يجعلها شاملة ومتنوعة تنوع نشاطات الحياة، هكذا يقضي على فكرة أن الدين مستقره المعابد أو المساجد أو الكنائس، هذه الكنائس التي عزلت الدين وأغلقت عليه في قوقعة لا تكاد تستفيد منه شيئا سوى بعض الشعائر التي تعد على الأصابع.

وهذا ما تجاوزته العقيدة الإسلامية فمن" **خصائص العقيدة الإسلامية الشمول والتوازن، شمولها للكيان الإنساني كله روحا وعقلا وجسدا، وشمولها في عرض حقائق الوجود ورد كل ما فيه على الإله الواحد، وتقرير عبودية ما سواه له سبحانه، وتوازنها في علاقة الوحي بالعقل، وكذا فاعلية الإنسان في الكون وفاعلية الكون في الإنسان، وعبودية الإنسان لله وسيادته على الكون بأمر الله، وأخيرا التوازن بين عالم الغيب وعالم الشهادة في حس**

المسلم "[26]؛ وهذه الخاصية تضم تحت جناحها العديد من الخصائص التي تمكن الإنسان من تحقيق بعد حضاري شامل من خلال المشروع الذي يصنعه في سبيل تحقيق التطوير والتغيير فبعد الإسلامي كوني وشمولي لأنه" **صورة لا تتجزأ دين وجماعة وعقيدة ونظام حياة** "[27]، وبهذا البعد الشمولي كانت الحضارة في التصور الاسلامي أيضا شاملة لجميع مجالات الحياة، تستوعب الذات الإنسانية وتعمل على إرادتها وتحريكها نحو الإنتاج والمبادرة ضف إلى ذلك أن الشمول ينشط خاصية أخرى هي التوازن الذي يضم السير السلس، والاستقرار الأمثل للإنسان، خاصة في تكامل البعدين الجسدي والروحي، فهو بذلك شمول واتزان.

وينقلنا الإسلام إلى ضرورة الإيمان بإمكانية تحقيق مشروع حضاري إسلامي كوني، ينبض بالإنسانية ويحتكم إلى قيم أخلاقية لأنه إذا " **اتسمت العقيدة الإسلامية بسمة العالمية الإنسانية، فهي عقيدة بين الإنسان من كل جنس ولون، فليست عقيدة للسادة دون للضعفاء، وليست للبيض دون السود، بل هي عقيدة للبشر جميعا** "[28]، فغارودي يؤمن إيمان عميق لا تزعزعه شكوك المنتقدين بمدى ضرورة بناء نظام حضاري عالمي، كما هو الحال في الإسلام الذي اكتسح العالم بنبله قبل قوته، وبإقراره للإنسانية بتوازن مع المادية، ليسع هذا الدين جميع البشرية دون حساسية

عرقية، أو تحرج من اللون أو الجنس أو الانتماء، من أجل التأسيس لحاضر مشرق، وإشراف لمستقبل رائد في مختلف القطاعات والمجالات، وبهذا نتجاوز الحدود الجغرافية والفكرية لتؤسس العقيدة الإسلامية في الأخير مجتمع ذو بعد عالمي، ويختلف عن سياسة العولمة جملة وتفصيلا، لتكون إنسانية الإنسان في الإسلام قبل رأس المال، وقبل الإقدام على أي مبادرة حضارية.

فالبعد العالمي ينص على وجوب انتهاج سياسة الانفتاح والتخلص من كل مظاهر الانغلاق والانعزال والالتفاف على الذات فقط، لتسع دائرة التأثير وتشمل كل الأطياف والألوان في مختلف القطاعات والتخصصات، بعيدا عن رعونة العصبية والقومية والأنفة على القبيلة والعشيرة " **فالإسلام لا يعرف أبدا هذا التعصب المتحجر، فالقرآن يعيد ويبدأ أن الله أرسل لكل شعب أنبياءه، لكي يتيح لكل أمة أن تستوعب الرسالة الإلهية على طريقتها** "[29]، وهذه برهنة على سماحة الإسلام وإيمانه بمبدأ الاختلاف، واحترام ثقافة الشعوب الأخرى، وهذا مظهر من مظاهر الرقي، كما أن فضل الإسلام في نظر غارودي يكمن في أنه " **أنقذ العالم من الانحطاط العام والفوضى، وأن القرآن الكريم أعاد إلى ملايين البشروعي بعدهم الإنسان وروحا جماعية جديدة** "[30].

وبهذا استطاع غارودي أن يصنع الاستثناء على الساحة الفكرية بمشروعه الحضاري الإسلامي الذي يعتقد فيه اعتقادا جازما بأنه بإمكانه أن يكتسب البعد العالمي والصفة الإنسانية، فغالبا ما تأخذ المشاريع ذات البعد الكوني طابع حب السيطرة والانتشار، ولو على حساب القيم التي تصون كرامته وتجعله يصنف في مصاف الإنسانية، لكن الإسلام يتجاوز هذا الأفق الضيق الى العالمية والشمولية والانفتاح وقبول الآخر في ظل احترام إنسانية الإنسان وضمان كرامته.

ويمكن أن نقول بأن الفيلسوف الإيرلندي المعاصر برنارد شو **" لخص فكرة روجي غارودي في المقولة التالية " عندما يريد الرجال المفكرون أن يلجأوا الى دين يحمي الفضيلة ويقي المجتمع ويكون سببا في الحياة السعيدة في البشر سيجدون الإسلام هو الدين الوحيد الذي يضمن لهم ذلك مع التقدم والنجاح، إن الإسلام هو الدين الذي تجد فيه حسنات الأديان كلها ولا تجد في الأديان كلها حسناته ومن الممكن أن يصل الرجل إلى أعلى درجة في الفلسفة والعلوم ويكن مع ذلك مسلما تقيا"**[31]

والمتأمل في القرآن الكريم سيفقه أن الكثير من الخطابات الإلهية موجهة لعامة الناس كبيرهم وصغيرهم، مؤمنهم وكافرهم محاولا أن يحتوي البعد الروحي وساعيا لخلق مجتمع عالمي.

الهوامش

1 -سعيد حوى: الإسلام، ط4، دار السلام، مصر، 2005، ص58.

2-السير توماس وأرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ط1، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1947، ص21.

3 -محمد عمارة: الإصلاح بالإسلام، ط1، نهضة مصر للطباعة والنشر، 2006، ص39.

4 -أسعد السحراني: الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة، ط1، دار النفائس للطباعة والنشر، لبنان 1988، ص101.

5 -عبد الرحمان حسن حينكة الميداني: الأخلاق الإسلامية وأسسها، ط5، دار القلم، دمشق، سوريا 1999، ص37.

6 -سورة الممتحنة: الآية 8.

7 -روجي غارودي: لماذا أسلمنا، دراسة: محمد عثمان الخشت، د ط، مكتبة القرآن، القاهرة، مصر ص73.

8 -عبد الرحمان شيبان: من هدي الإسلام، (د ط) دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009 ص166.

9 -أنور الجندي: عالمية الإسلام، د ط، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1977، ص23.

10-احمد حجاج: برنارد شو، الإسلام، قضايا وآراء، العدد43580،ابريل 2006.

www.ahram.orgeg

11- روجي غارودي: حوار الحضارات، ص5.

12- روجي غارودي: وعود الإسلام، ص32.

13-مصطفى حلمي: الإسلام والمذاهب الفلسفية، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2005، ص313.

14-روجي غارودي: لماذا أسلمت، ص87.

15-المرجع نفسه، ص90.

16 –المرجع نفسه: ص93.

17-مصطفى حلمي: الإسلام والمذاهب الفلسفية، ص335.

18- روجي غارودي: لماذا أسلمت، ص85.

19- مصطفى حلمي: الإسلام والمذاهب الفلسفية، ص336

20-المرجع نفسه، ص335.

21-المرجع نفسه، ص336.

22-روجي غارودي: لماذا أسلمت، ص109.

23- ماجد محمد علي أحمد شبالة: العقيدة الإسلامية ودورها في بناء الحضارة الإنسانية، مجلة الأندلس للعلوم الاجتماعية والتطبيقية، العدد10، دب، نوفمبر 2013، ص96.

24- روجي غارودي: لماذا أسلمت، ص106.

25-المرجع نفسه، ص34.

26-ماجد محمد علي أحمد شبالة: العقيدة الإسلامية ودورها في بناء الحضارة الإنسانية، ص98.

27 -روجي غارودي: وعود الإسلام، ص23.

28- ماجد محمد علي أحمد شبالة: العقيدة الإسلامية ودورها في بناء الحضارة الإنسانية، ص99.

29 -روجي غارودي: لماذا أسلمت، ص101.

30-المرجع نفسه، ص.104

31-نقلا عن كمال عبد المنعم خليل: الأسرة المسلمة والتغريب، مجلة الرابطة، العدد 421، مكة المكرمة، ص34

خاتمة

خاتمة

يمكن الجزم بأن الإسلام في طريقه الى الكونية في زمننا هذا اصطدم بإنسان مسلم منغلق غير مفكر غير مبدع افتقد الى كل معالم الحضارة، مسلم لا يدرك من التوحيد سوى الفهم النظري لهذه الكلمة، متجاهلا بذلك أبعاد التوحيد الاجتماعية والثقافية والجمالية والحضارية، وتحول المسلم إلى إنسان شهواني غريزي، يبحث فقط عن تحقيق المطالب الحيوانية من مأكل ومشرب، حتى ولو على حساب انسانيته وعقيدته.

إن ضيق أفق الإسلام اليوم يعود إلى ضيق أفق الكثير من الطوائف والفرق الإسلامية، التي نقلت الإسلام بقصر فهما له من سعة العالمية إلى ضيق القومية، ومن سماحة القيم الإسلامية الكونية إلى عفن العصبية، وشوه الكثير منها صورة القيم الإسلامية، وأنهى كونيتها وعالميتها، وتسببنا في تراجع مكانة الإسلام، وكان جرمنا اتجاه الإسلام أكبر بكثير من جرم أعدائه ومحاربيه، وهذا على عكس العصور الأولى التي صنع فيها الإسلام الحضارة بتقديسه للأفعال الحضارية، ومنها صنع الكونية لقيمه ومبادئه، فنال اعجاب العدو قبل الصديق.

وكان المجتمع الإسلامي وقتئذ مؤثرا لا متأثرا تابعا لا متبوعا لكن المسلم اليوم أصبح عبئا على الإسلام، بقصور فهمه للدين فنقل الاسلام من سعة العالمية الى ضيق القومية ومن الانفتاح على الآخر إلى الانغلاق على الذات، وأزمة المسلمين اليوم هي أزمة قيمية وأخلاقية وثقافية، تعكس عجز المسلمين عن التفاعل مع العقيدة الإسلامية، وعجزهم عن الالتزام بالقيم الإسلامية الحضارية ونقلها إلى الكونية المنشودة.

واكرر القول بأن تراجع مستوانا الأخلاقي لا علاقة له بديننا الإسلامي، واقصاء بعض الفرق الإسلامية للإنسانية في تصوراتها هو اقصاء يخصها، ويخص فهمها للدين، ولا علاقة له بالدين الإسلامي، وقوة الإسلام تكمن في كونية خطابه وعالميته، كما تكمن في إنسانية هذا الخطاب، وما أجمل القيم الإسلامية، لكن لوكان لها رجال، وما أروع أخلاق الإسلام وأنقاها لو أنها تحولت إلى أفعال لتصبح الأفعال رجالا تمشي على الأرض.

إنه لا يمكن لنا كمسلمين أن نتحدث عن كونية القيم في الإسلام، ونحن لا نساهم في الإنتاج الحضاري، وهو واجب المسلم المعاصر، والكثير من صور الحضارة التي يعجب بها المجتمع الإسلامي اليوم في الحضارة الغربية، والكثير من الأفكار

والقيم الفلسفية الكونية موجودة على مستوى النص القرآني لكن جهل وتجاهل العقل الإسلامي لهذه الصور جعله يعجب بذات غربية، في حين أبدت فيه الذات الغربية اعجابها بالنص القرآني والقيم الإسلامية، ووجدت فيه روح الحضارة، وما ينقصنا اليوم هو إيماننا بصلاحية القيم الإسلامية واعتناقنا لها، وتفعيل النصوص القرآنية لتأسيس حضارة إنسانية وفي انتظار ميلاد مجتمع إسلامي يهتم بنصوصه وتراثه وقيمه ويجعل من هذه القيم منطلقا للتجديد الحضاري وصولا إلى العالمية والكونية في انتظار هذا نتساءل: **هل يمكن القول بأن المجتمع الإسلامي اليوم أتهم زورا بالقيم الإسلامية، ويجب رفع التهمة عنه؟**

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

مقدمة.....ص3

أولا/ التفكير و أبعاد التوحيد في الإسلام

التفكير طريقنا إلى التوحيد.....ص8

التوحيد وقدسية الآخر.....ص14

التوحيد وبعث إرادة الانسان..... ص22

ثانيا/ قدسية القيم والأخلاق وعلاقتها بالسعادة في التصور الإسلامي

بين الأخلاق والقيم ص38

أقسام النفس..... ص44

تحصيل السعادة وعلاقتها بالأخلاق والسياسة..... ص47

ثالثا/ المسؤولية والعدالة

تعريف المسؤولية ص59

العدالة في التّصور الإسلامي.....ص75

تعريف العدالة ص76

العدالة عند الفقهاء المسلمين ص77

قيمة العدالة ص87

رابعا/ التربية في الإسلام وضرورة الانفتاح على الآخر

الفكر التربوي الإسلامي..... ص95

علاقة التربية بالتعليم ص97

الباديسية والتصور الإسلامي للتربية ص103

التربية وملائمة روح العصر ص113

خامسا/ أولوية الإسلام بالحضارة

تعريف الحضارة ص128

مكانة الإنسان المسلم في المعادلة الحضارية ص132

الربط الإسلامي بين الثقافة والتاريخ والتربية ص157
العناصر الثقافية ودورها في صناعة القيم ص159

سادسا / القيم الإسلامية في مواجهة طغيان

الاستنساخ البشري ص173
الاستنساخ الحيوي ومشكلاته الأخلاقية ص173
صيانة النوع الإنساني ص184
موقف الشريعة من الاستنساخ ص187
تحديد جنس الجنين..... ص190

سابعا / عالمية الفقه الإسلامي و أثره في القوانين الغربية

وقائع تؤرخ لأثر الفقه الإسلامي..... ص197
دراسات تؤرخ للفلسفة العربية الإسلامية ص200
مكانة الفقه الإسلامي بين النظم القانونية الغربية ص203
التشريع الإسلامي بأحكام قانونيين ومفكرين غربيين ص207

ثامنا / كونية القيم في الإسلام

الإسلام وثقافة المعاملة ص216
الإسلام دين الوسطية والاعتدال..... ص219
الإسلام دين محاسن القيم ومكارم الأخلاق ص220
الإسلام دين عفو وصفح..... ص222
عالمية الإسلام ص225
روجي غارودي والرؤية الكونية للإسلام ص231
خاتمة ص249
فهرس المحتويات..... ص253